

تصحّر الحوار في شبكة العلاقات وإنتاج العنف

د/ العربي فرحاتي

د/ بكيري نجيبة

جامعة باتنة

أولاً : محاولة لتقريب فهم الكلمات المفتاحية للقارئ وحصول الفهم والتفاهم.

التصحّر والحوار وشبكة العلاقات والعنف، هي المفاهيم أو الكلمات المفتاحية لها معناها اللغوي المعجمي، لا نهتم بها كثيراً في هذا المقام، بقدر ما نهتم بدلالاتها كمتغيرات وظواهر لها وظيفتها الخاصة في هذا البحث، والتي شكلت في كليتها معنى إشكالياً يتعلق بعلاقاتها وتفاعلها . وفي ما يلي بيان ذلك.

1. في معنى تصحّر الحوار:

لا نعني بالتصحّر هنا ما تدل عليه حروفه الأصلية من معاني ويشير إليه لفظه لغوياً، من حيث هو (صحراء) بمعنى وسع الفضاء والمكان⁽¹⁾ ولا نعني به ما يشار به عادة إلى ظاهرة مناخية تطرأ على منطقة جغرافية معينة، فيصيبها ما يصيب الصحراء من زحف الرمال وقحط وحرارة شديدة وصعوبة الحياة فيها⁽²⁾ وإن كان ذلك جزء من معانيه لا تنفصل عنه بشكل من الأشكال وسنستحضرها عند الحاجة، بل نعني به أشبه ما أشير إليه المنجد، حيث ورد أن "أصحّر ما في القلوب" تعني إخفاء ما بها، ويقال "لا تصحّره أمرك" بمعنى لا تظهره له، وأصحّر ما في قلبك بمعنى أخفه ولا تظهره⁽³⁾ ولا نعني به هنا بطبيعة الحال معاني أخلاقية التي قد ينصرف إليها الذهن أيضاً، كالنفاق والإبطان والكتمان والإخفاء وعدم إظهار الحقيقة، والكذب وما إلى ذلك. وإن كان ذلك يلامس أيضاً ما نعنيه بالتصحّر من بعيد، فنعني به، ذلك الفقر والجفاف الذي يصيب

(1) علي بن هادية وآخرون . القاموس الجديد الطالب . ط7 . (الجزائر . المؤسسة الوطنية للكتاب .

1991) . ص 550 .

(2) المنجد في الإعلام واللغة . ط/26 . (بيروت لبنان . دار الشروق . ب.ت) ص 417

(3) المرجع نفسه . ص 417

العلاقات بين الذوات وأصحار ما في قلوبها، طوعا أو كرها، ولا تظهر أمرها لبعضها البعض، فتختفي أجزاء كبيرة من الذوات بفعل الشكوك أو الممنوعات، أو المعوقات، الشعورية واللاشعورية، فيقال التصحر المعرفي حين لا يغذى الدماغ بالمعارف فيصيبه جفاف معرفي⁽⁴⁾ ويقال التصحر الوجداني حين لا تتغذى الوجدانات بالحب والتقبل والعطف والشفقة والرحمة، فيصيبها جفاف وقسوة وغلظة، وجفاء، وكذلك يمكن القول بتصحر العلاقات الاجتماعية، حين تجف لغة الاتصال لسبب من الأسباب بين الناس ويتناقلون . كجماعة . في الاتصال بعضهم البعض، فتتمكن الانعزالية من أفراد الجماعة ويتعاظم تضخم الأنا وينتشر، كما يمكن أن تنقزم الأنا وتضعف، وتتمكن الضبابية الشديدة من العلاقات، وتنشأ عوائق نفسية للاتصال، ويصيب الذوات بعدئذ بانهميار نزعة الغيرية وخفتها، فمثل تلك الذوات والفئات التي تصحر علاقاتها، كممثل الفقر النباتي الذي تكون عليه الصحراء وتصعب فيها الحياة، وقد يصل التصحر في الاتصال بين الذوات المتجاورة حد قطع الكلام والحديث بينها لسنوات (الهجر المنهي عنه). فينقص التبادل والتبليغ والتأثير – باعتبارها وظائف مركزية للتواصل الحيوي – بين الأعضاء والفئات المتجاورة، ومن ثمة يمكن القول بأنه إذا كان التصحر الجغرافي ظاهرة طبيعية، فإن تصحر الحوار في العلاقات تعد عاهة من ضمن العاهات الاجتماعية التي تصيب الذوات . وإلى هذا المعنى الشائع الذي تنصرف إليه الأذهان تلقائيا نركن ونتمركز، فنضع تصحر العلاقات في معناها السليبي، حيث لا يكون إلا كذلك من الوجهة الحركية الفكرية والمجتمعية، بحيث نشير به إلى ذلك الوضع الاجتماعي التوتاليتاري المجففة ينابيعه العلائقية التواصلية، فتصبح الذوات في ظله تتحرك في المنطقة المظلمة والمجهولة، فلا تعرف الذات نفسها ولا تعرف محاورها، مما يؤدي آليا إلى انتشار الريبة والشك والأنوية الزائدة أو الانطوائية، وتقلص الغيرية واغتراب الشخصية في الذات، بل يؤدي إلى كل ما يمكن تصنيفه ضمن الباثولوجيا الاجتماعية من انعدام الشعور بالاطمئنان والثقة والانحراف والعنف بكل أشكاله...الخ. فلا شك أن إفساح المجال للتعبير وتنوع وسائله وصيغته هو في ذاته تجفيف لعوامل التصحر، وأن الصمت المعبر، والكلام المفيد وتبادلته، وإشباعه وإثرائه بالمفردات النافعة في مجالس حوارية، وكذا

(4) العربي سليمان . إشكالية القراءة والتصحر المعرفي . علوم التربية . ع/23. دورية مغربية نصف سنوية .

(الدار البيضاء . المغرب . مطبعة النجاح، علوم التربية . 2003) ص 96 .

القراءة الواسعة والاستماع إلى الآخرين والاجتماع إلى العلماء والخبراء والعارفين، والحرص على تنويع مصادر المعلومات والمعارف، من شأن كل ذلك أن يعلم الحوار وأن يغذي ثقافة الجدل والتي هي أحسن، ويكثر من العلاقات التعارفية (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن) (السورة . العنكبوت . الآية . 46) فالحوار قيمة وفضيلة دينية عليا، فالله قد كلم الإنسان وحاوّر الشيطان وسمع المتحاورين وأمر الملائكة، وهو بين الناس تداول للكلام وجدال وفهم وإفهام تنشرح فيه صدور الذوات وتنفّث لبعضها البعض، فكما يقال "المرء مخبوء تحت لسانه" وعند الإفصاح عن الذات تسود قيم الاتصال التعاوني من حيث هو تفاعل الذوات، وينتفع بمحاسنه - كما قال الجاحظ قديما، في حين أن الصمت - وإن امتدح في القديم بوصفه امتناعا عن كثرة الكلام يصون اللسان ويحفظه من الأخطاء والفضح، وهو من آداب المجالس وأخلاقياته، كما هو عند الغزالي - إلا أنه في الأدبيات نفسها وعند الجاحظ بالتحديد، استهجن بوصفه إقصاء وتهميشا⁽⁵⁾ فالصمت عندما يصبح ثقافة الخرس ونبد الكلام ومنعه وقمعه، يصبح مؤشرا خطيرا على فقر الاتصال ومنع الكلام بفرض الإجماع ونقص التعلم، من شأنه أن يزيح العلاقات من منطقة الوضوح والسقوط بها في الضبابية، حيث تعثر الكلام وتعطل الرسائل الاتصالية وإحكام الإغلاق على النفس والانسحاب الاجتماعي إلى الحوار المونولوجي، ولتفادي المضاعفات السلبية للصمت السلبي والكلام السلبي، ينشد أهل العلم بالاتصال، سياسة التوازن، يكون فيها الصمت - كما يقال - جسد للكلام وتربته التي ينمو فيها الكلام المفيد، حتى يصبح الصمت كلاما له معناه . عند من يفقه ذلك ويقرأه في الصامت . يبدأ وينتهي عند كل صوت وتلفظ، وهو ما يجعل من الكلام والصمت حوارا يفترض فيه أن يكون مكثفا، سواء بالرسائل الإيمائية والصامته أو بالمناقشات الجادة المفيدة، كما لو أن ذلك شرط وجودي لتغذية العلاقات الاجتماعية والتفاعل والتداوت والتقارب، وقد وضعنا مؤلف (الكلام او الموت) أمام معادلة لا خيار لنا فيها، فأما أن نكون من المتكلمين والمتحاورين والمتواصلين والمتفاهمين، أو أن نكون من البيولوجيين الميتين المنعزلين والمتنافرين المنغلقين، فبنقص التعبير كما يقول حجازي نكون بصدد الموت الكياني . ومن ثمة

(5) عبد السلام بن عبد العالي . في الانفصال . ط1/. (المغرب . الدار البيضاء . دار توبقال للنشر .

فحضر القول ومنع الفكر هما الأفتان الأكثر فتكا بالعلاقات الاجتماعية⁽⁶⁾. فمن شأن الكلام أو الصمت التواصل أن يبدد حواجز الاتصال النفسية والوجدانية، وأن يطوي التباعد والمسافات بين شركاء الوطن الواحد أو الجماعة الواحدة أو الأسرة الواحدة، فيتقاربون ويتحابون، ويبعدون فرضية المؤامرة عن بعضهم البعض. وبدونه سيصبح الكل مغلق في ذاته وهويته وعشيرته، لا ينبعث منه إلا الشك والتوقع الدائم للاعتداء (الإنسان ذئب لأخيه الإنسان) والتفكير في سبل الوقاية والاستعداد للمقاومة والتصدي، إن لم نقل السبق في الاعتداء، وهو الأمر الذي سيفضي إلى ما يمكن أن نسميه تعنيف الحياة . من حيث هو استحضار مكثف لمنطق القوة والفرص في أي مشروع علائقي بخصوص إشباع الرغبات والحاجات وضمان العيش المشترك.

أ . أوليات وأبجديات حدثية في اللغة والحوار لابد منها :

بداية يجب تسجيل أن الحوار من حيث هو تداول وتحيين للخطاب اللغوي يجري بين ذاتيتين أو جماعتين أو ثقافتين أو حضارتين...الخ حول موضوع ما، هو موضوع لسانی ولغوي واتصالي إعلامي واجتماعي نفسي وتربوي، أفاضت البحوث المتخصصة في رصد معانيه ومكوناته وكفاياته لا سبيل لنا في هذا المقام لعرضها، ونكتفي بالتأكيد والإشارة إلى ما أكدته وأشارت إليه تلك البحوث من أن أبجديات الحوار وفي أي مستوى، دونها شروط وكفايات ووضعيات على مستوى المسافة بين المتحاورين وقدرتهم على تأويل الرسائل، وكفايات اللغة كبنية ونسق من العلامات، وكفايات على مستوى منظومة الاتصال بأركانها، (الرسالة والمرسل والمستقبل) أي الإمام بقواعد الحوار وكفايات الاتصال وكفايات الخطاب، وكفايات النص والرسالة، والإمام بالوظائف اللغوية والقدرة التعبيرية والتداولية وعناصر التشويش...الخ . وهو في كل ذلك محكوم بأخلاقيات الحوار من حيث هو التعاون القولي⁽⁷⁾.

تلك هي أوليات الحوار كموضوع يجري بين ذاتيتين وطرفين أو أكثر، يتوقف سلاسته على ما في النفس والجوف وإدراكهما لنفسيهما، والدارسون يؤكدون أنه كلما كان مفهوم الذات وإدراك الآخرين عند كل من المرسل والمستقبل مقتربا

⁽⁶⁾ مصطفى صفوان . الكلام أو الموت . ت. مصطفى حجازي . ط 1 / (بيروت . المنظمة العربية للترجمة .

مركز دراسات الوحدة العربية 2008) صص 10 . 7 .

⁽⁷⁾ عبد السلام بن عبد العالي . في الانفصال . مرجع سابق . ص . 51

بالواقعية والعقلانية، كلما كان التواصل مع الآخرين أكثر نجاعة، وكلما كان مفهوم الذات سلبيا عندهما أو عند أحدهما نتيجة التنشئة على نمط الطفلية والأبوية والرقابية والقهرية..الخ كلما كان الاتصال أقل فعالية والحوار كان متصحرا . واللاشعور له نصيب في حياتنا الاتصالية، إذ كثيرا ما يكون فقر التواصل وتقطعه وعدم القدرة على الاسترسال والتجاوب في الحوار مع البعض دون البعض الآخر، نتيجة لـ "اللاوعي" كما يقول التحليل النفسي⁽⁸⁾ والصمت لغة أخرى وأحيانا يكون أبلغ التعبير عن الرسائل فقد قيل "أن الصمت صرخة كبرى وانفجار" وقد يعبر به عن حالات الفيض الانفعالي وعن الرفض والتقارب والحيرة والتساؤل...الخ.⁽⁹⁾ والحوار بهذه الأوليات هو شأن تربوي من حيث أن التربية هي . ابتداء . تعلم مستمر من المهد إلى اللحد لكيفية الاتصال وأبجدياته، فالمجتمع المتعلم هو المجتمع الأكثر تكوينا في لسانه ولغته وتواصله، وهو مجتمع بالتالي حوار، والعكس أن المجتمع الفقير في تربيته وتعلمه هو المجتمع الأكثر فقرا في لغته وتواصله وحواره، وبالتالي فهو مجتمع الانفصال والانعزال والتباعد.

ب. الحوار حرب على مستوى اللغة

اللغة سواء أكانت وظيفتها تعبيرية كما يراها "نعوم تشومسكي" (التوليدية التحويلية) أو تواصلية ، كما يراها "فاندري مارتيني" (البنوية التداولية) فهي أداة للحوار، فالحوار باعتباره إنهاء للانعزالية أو إنهاء للنزاع والقطيعة والحرب الدائرة بين المتحاربين، هو بداية سيادة أخلاق التفهم والتقارب والتوافق والتواؤم والقول الحسن، ذلك حين يكون في نطاق مرجعية "العقلانية" المتدثرة بالأخلاق الإنسانية، من حيث أن "الأخلاق الإنسانية" تجعله من غير حاجة إلى تكافؤ القوى بين المتحاورين، مستبعدة لكل معاني رفع الصوت أو الرفض وأساليبه ولغته، مستحضرة لحسن النية وتعبيراتها، غير أنه إذا حدث الحوار في ظل سيطرت النزعة الوثوقية باللاتكافؤ بين المتحاورين، وتصنيفهم إلى ضعيف وقوي، وعارف ولا عارف، وسيد ومسود، ومستعمر ومستعمر، فإنه ستراجع العقلانية لصالح القوة، وسيكون

(8) ميلود حبيبي . الاتصال التربوي وتدرّس الادب . دراسة وصفية تصنيفية للنماذج والانفاق . ط1)

بيروت . لبنان المركز العربي الثقافي . 1993 (صص 59 . 66) .

(9) مصطفى حجازي . الاتصال الفعال في العلاقات الإنسانية والإدارة . ط3 . بيروت . المؤسسة الجامعية

الحوار بعد ذلك بالضرورة وهميا، لأنه سيكون خاضع لمرجعية الهيمنة والسلطة، وتكون اللغة من حيث هي أدواته، محل تنازع القوى المتحاربة فيستفرد الأقوى ومالك السلطة، بفرض المعاني والكلمات والخطابات ويحولها هي ذاتها إلى قوة ضاغطة، (ضمن ثقافة أنا خير منه، وثقافة من ليس معي فهو ضدي) حيث تتحول الكلمات كما يقول نتشه إلى كميات من القوة، فيفرض أوامره ونواهيه وتطبيق حلوله ولا معقب لكلماته، ويصير الآخر المتحاور (خصم) في معادلة الحوار ألامتكافئ، كما لو أنه مجرد صدى لمشكلات الأقوى وحلوله التي يعطيها، ويتحول المشهد الحوارى إلى صراع الكلمات وحرب اللغة الآيلة حتما إلى التوتر وإعادة إنتاج العنف بصيغة أخرى كالاحتجاج والرفض والمقاطعة... الخ.⁽¹⁰⁾ ومن ثمة فالكلمات والجمل والخطابات بما تحمله من مضامين ورسائل، قد تغدو مفردة من مفردات القوة التي تفرض نمطا معيناً من العلاقات تكون مدفونة في اللاشعور المعرفي .

وتأرجح القوى المتحاربة بين الحوار وانبعاث العنف في دورة دائرية، نجدها ماثلة في العلاقات كما تعكسها نوعية اللغة والمفردات التي تشاع في مرحلة تاريخية معينة، وتعد بمنزلة اللاشعور المعرفي اللغوي إن صح التوصيف، فحسب تحليلات " بنعبد العالي" أن إشاعة مفردات التسامح واللين والمرونة والتفاوض وتلمس الأعذار وعنونها بـ " أخلاق التفهم" هي التي طفت إلى السطح الإعلامي والسياسي منذ أواخر القرن الماضي، ولا يعلو عليها أي خطاب، كبديل عن ما أسماه بـ "أخلاق الرفض" التي يقصد بها ما كان يشيعة السياسيون من مفردات التغيير والثورة والقطيعة والتصحيح والصرامة الأيديولوجية في بداية القرن ذاته، فصار ما كان حلا في بداية القرن، مشكلة في آخره، والعكس صحيح.⁽¹¹⁾ ولعل قيام مدرسة فرانكفورت كانت نتيجة ما اعتبر مأزق الغلق الحدائى وانكفاء الذات على ذاتها في العقلانية المغلقة، فكان ميلاد العقل التواصلى كما صاغه "هابرماس" دعوة لانفتاح المؤسسات والحضارات والثقافات واللغات على بعضها البعض .

وعليه يمكن أن نخلص من ذلك إلى ما يهمننا في هذا المقام أكثر، وهو أن الحوار من حيث أنه إحدى مرفولوجيات الممارسة اللغوية في نظرية التواصل، ليس دائما

(10) عبد السلام بنعبد العالي . ميتولوجيا الواقع . ط1/ . (المغرب الدار البيضاء . دار توبقال للنشر . الدار

البيضاء . 1999) ص 20

(11) المرجع نفسه . 44

صورة إيجابية وردية مرغوبة، إذ أنه وفي نظر مبتدعي العقل التواصل على رأسهم "هابرماس" يمكن أن يفتح في كل مستويات التواصل اللغوي (التفاهم والتفاعل والمناقشة والتذاوت) آفاقا للمعنى والتفاهم بين الذوات، ويقرب للحقيقة، كما يمكن أن يفتح. وبشكل قد يساويه. آفاقا للتشويش وسوء الفهم بين الذوات والابتعاد عن الحقيقة، انطلاقا من أن المعنى في نظر "بريطو" إن هو إلا تلك الرابطة أو العلاقة الاجتماعية بين المرسل والمتلقي التي تحدثها أو تقيمها اللغة كنظام رمزي إشاري ثان، أثناء التلفظ (الفعل السيميائي).⁽¹²⁾ ذلك أن المتكلم قد يتكلم ليفصح عن ذاته ويعبر عن أهدافه ورغباته ويكشف عن أنه للآخر المحاور، وقد يضلله ويبعده عن الحقيقة ويغويه فيغشه، كما يغش التاجر زبائنه، وقد يفشل في التعبير عن ما يريده وقد يجعل منه وسيلة للتكشف من أجل السيطرة والهيمنة كما هو الشأن في الحوارات التي أجراها المستشرقون من أجل الاحتلال الثقافي. وهو ما قد يكون سببا لصيقا بتخريب شبكة العلاقات.

2. في معنى العلاقات الاجتماعية:

وإذا ما عدنا إلى مفهوم العلاقات الاجتماعية، كما هي محددة في قواميس ومعاجم العلوم الاجتماعية بوصفه أحد مفاهيم هذا البحث، فسنجدها في مضمونها ما هي إلا وضعيات اتصالية بين أفراد وجماعات وثقافات، بوصفها ذوات وهويات، توجد في وضعيات ومستويات متباينة، صيغت في ضوء شروط القرابة والائتيات العرقية والثقافية كما هو الشأن في العلاقات الأسرية والقبلية والعشائرية، أو في ضوء إبرام اتفاق مهني في مؤسسة معينة تحكمه فلسفة الإنتاج وأهدافه، أو في ضوء إبرام عقد اجتماعي اتفاقي رمزي وطني، تحكمه فلسفة المواطنة كما هو الشأن في العلاقات بين أفراد المجتمع الواحد، أو في ضوء المبادئ النفعية والمصلحة المشتركة كما هو الشأن في ما بين الدول أو بين الشركات المتعددة الجنسيات، أو صيغت في ضوء علاقات الصداقة والزمانة المهنية الثنائية كما هو الحال في علاقات جماعات الرفقاء والأصدقاء والأحباء... الخ. فكل دوائر الوجود الاجتماعي، إنما هي دوائر اتصالية وحوارية في نطاق مرجعية الفعل، بوصفه المرجعية العليا في انتظام الحوار والتبادل اللغوي بين المتحاورين والناظم الأعلى

⁽¹²⁾ جاكسون وآخرون . التواصل نظريات ومقاربات . ت. عز الدين الخطابي وزهور حوتي . ط 1. (المغرب

لوضعيات المتحاورين لدى "بارسونز" صاحب نظرية الفعل الاجتماعي، ومرجعية الجماعة بوصفها عقلا جمعيا وعقد اجتماعيا يجري بين الذوات عند الكثير من الفلاسفة.

وبناء عليه فالعلاقات بهذه الصيغة يحكمها في النهاية نظام مرجعي معياري غائي (النموذج) موجه للفعل الاتصالي لتحقيق غايات مرغوب فيها لدى الأفراد والجماعات، وكل تعثر في تحقيق الأهداف لسبب من الأسباب من شأنه أن يبعث في الأفراد والجماعات إحساسا بالحرمان، من حيث هو هنا فشل في تحقيق ما هو مرغوب فيه،⁽¹³⁾ قد يهدد البنية الاجتماعية بالتفكك ويضعف من دور الأفراد ويحد من ما يسميه "بارسونز" بالعلاقات النموذجية الكلية، فلن يبقى منها إلا علاقات قطاعية جزئية للأفراد، حيث نقص الاتصال وتصحر الحوار بين الأفراد.⁽¹⁴⁾

أ. الأطر الإبستمولوجية للعلاقة :

وتتأسس العلاقات من منظور علم النفس الاجتماعي على ما يمكن اعتباره الدافع الفطري يتعلق بـ "الحاجة إلى الانتماء" وتأمين الذات من العزلة، من حيث أن حب الانتماء هو الدافع الذي يجعل الفرد ينشط كما يعتقد "هوغ" على شعاع (فردى/ جماعى) فالفرد ينزع فطريا إلى طلب الحماية - ضمنا أو صراحة - من الآخر والانتماء إليه والالتحاق بالجماعات والمؤسسات، ويؤهل ذاته لاستبطان قيمها ومعاييرها، باعتبارها موطنها غنيا بفرص إشباع الحاجات وتحقيق الذات، بل هو الفضاء الذي يمكن الفرد من معرفة ذاته (إدراك الذات) من خلال معرفته لمواقع وذوات الآخرين نظراءه.⁽¹⁵⁾ وقد أكدت تحليلات "فروم" بطلان مزاعم الفرويدية في المنشأ الغريزي للحاجات والعواطف، وأكد في المقابل نشوءها عن "وجود الإنسان" مما دعاه إلى القول بأن التواصل هو الانفلات من سجن الغرائز البيولوجية والترجسية لصالح سلامة الذهن وأن المازوخية (الخضوع) والسادية (السيطرة) وضعيتان نفسيتان لا تؤديان إلى الإشباع في ظل غياب الضمير الإنساني وإحلال

(13) عبد الحميد قرفي . بناء المعرفة السوسولوجية. تنسيق دانيال كلود إيشودميرزون . (الجزائر . بن عكنون .

ديوان المطبوعات الجامعية . 2010. ص 77

(14) المرجع نفسه . صص 77 . 78 .

(15) ج.ب هوغ ، د. ليفيك ، أ. موران . الجماعة السلطة الاتصال . ت. نظير جاهل . ط2 . (لبنان .

بيروت . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر . 1996) صص 9 . 10

محله الضمير التسلطي⁽¹⁶⁾. ولذلك فمن أجل حياة التعلق المتبادل كما يسميها "لوين" التي توفرها الجماعة، يسعى الفرد للانتماء ولوقايض ذلك بارتهاج إنيتة وفرديتة، حيث تصاب فرديتة . بما يلتزم به من الامتثال للعقد الرمزي . لآفة الانغلاق في أطر مرجعية وقانونية وأخلاقية ومهنية ضابطة، تكون في أكثر الحالات . لاسيما في النظم والجماعات المغلقة التوتاليتارية - ضاغطة على فعل المبادرة، وسالبة للحرية ومعيقة للابتكار وقاهرة للذات، بوصف الجماعة في كثير من أدبيات علم الاجتماع كائنا نفسيا، ذا وجود مستقل لا تاريخي (رغم انتظامها في المكان والزمان) أكبر من الفرد وسابقة عليه. وهكذا تتحول الحماية إلى سلب وقهر، وبهذه الازدواجية (الحماية/ القهر) ، يصبح الفرد مخيرا بين ما نسميه "التبعية المريحة" التي تمنحه فرصا لتعدد انتماءاته وإدارتها بما يشبع حاجاته النفسية والمادية، فينفتح على أكثر من جماعة (الأسرة، المؤسسة، الحزب، المجتمع...الخ) بوصفه ذات "حرية" لها من قوة التبدل في لون الشخصية واستبطان المواقف والحالات، ما يجعلها أقدر على التكيف، كما يمكن في الوقت نفسه أن يجعله في حالة خضوع وشلل تام لإرادته وحرية أمام صرامة الجماعة وقوتها في تحقيق سلطانها على الأفراد، كضمان لاستمراريتها وثباتها، حيث تقاوم التغير وعوامله، وتبادر إلى التغير وتنفذه حين ترغب في ذلك، في غياب ما يسميه "لوين" بالتعاليق المتبادل، من حيث هو مبرر الجماعة وجوهر وجودها⁽¹⁷⁾

واللاتعاليق المتبادل هي الحالة التي تكون عليها جماعة السلطة الحاكمة المتسلطة بالقوة الغاصبة للشخصية الفردية، والتي تكون عادة مستغلة أو مرتبهة أسيرة في يد فرد أو أفراد نافذين قياديين يستعملونها كقوة غاشمة لتحقيق رغباتهم، حيث أن وضعيتها الضاغطة وفروضها، وأوامرها ونواهيها تؤدي إلى اختفاء التآلف والتعاليق والتضامن، ولا تسمح لهم بالاستفادة الفردية وتحقيق ذواتهم، كما لا تسمح بفرص إعانة الآخرين وحققهم في ممارسة الواجب كما يرونه، الأمر الذي يجعل من الجماعة كما لو أنها مجرد وحدات من الأفراد المنعزلين العاجزين عن إنجاز التفاهم والتواصل أو عاجزين عن استبطان قيمهم ومعاييرهم الجماعية، ولا

(16) إريك فروم . المجتمع السوي . ت. محمد منقذ الهاشمي . ط 1 (سوريا دمشق . وزارة الثقافة الهيئة العامة

السورية للكتاب . 2009 .) ص 135

(17) ج.ب. هوغ . وآخرون . الجماعة والسلطة الاتصال . مرجع سابق . 12

يستطيعون تحويل إرادتهم الفردية إلى إرادة كلية، فيعيشون حالة من النشاط أو التناافر الإدراكي، يسودها تعطل مقلق للرسائل المتبادلة، ليحل محلها الخوف والانفعال، كآليات لتمرير الرسائل، فيفشل البث وترفض الرسائل حتى ولو كانت تخاطب القيم الأساسية للمستقبلين، فينتشر الإحساس بالإحباط، إن على مستوى الإرسال، أو الاستقبال. ومن تراكم الإحباط لدى الأفراد جراء الفشل في التواصل، ستنبعث دون شك التوترات والنفور، وتتعطل شبكة الاتصالات والحوار، فتضعف شروط التواصل وتختفي المعلومات وتشح وينقطع الكلام، ويتعذر الحوار، وتحدث النزاعات ويصير العنف والعدوان بأشكاله من اللامبالاة إلى الاحتجاجات، فإلى المواجهة والعنف المادي كمآل للحال المتصحر علائقيا وحواريا.

المخفي والمعلن في العلاقات :

ب. العلاقات الرسمية وتصحر التعبير:

إذا كان لتقنيات التحليل النفسي فضل في كشف أغوار النفس وتجاوز أغلفتها بفضل التداعي الحر والعلاج الإكلينيكي، وإذا كانت نفس التقنية تخفض التوتر حين تقدر حرية المتكلم وعدم تدخل المستمع كما يشرحها فرويد⁽¹⁸⁾ وإذا كان لتقنية المثير والاستجابة وتكنلجة الفعل الاتصالي فضل في تعلم الحوار بين الذات، والتعبير عن الحاجات الواقعية الحسية، فإن لتقنية السوسيومترى لمورينو "زيادة عن أفضالها في تجاوز وهم تحرير الناس بفكرة التعبير عن الماضي في التحليل النفسي العلاجي (التداعي الحر)".⁽¹⁹⁾ وتجاوز وهم التعلم بفكرة تكنلجة الفعل في تقنية المثير والاستجابة، وتجاوز إسقاط الماضي القيمي والأطر الاجتماعية والأيدولوجية على الواقع، ... الخ ، فإن فضلها كان أكثر تجليته في ما انتبه إليه "مورينو" من ضرورة الولوج إلى أعماق الجماعة، حيث .وبتقنية السوسيومترى . دفع "مورينو" بالتلقائية والعفوية إلى واجهة البدائل المفضلة في فهم وتفسير السلوك الحوارى في الجماعة، وكشف أن الحوارات الرسمية المنظمة في أي جماعة من الجماعات، هي حوارات مضللة ومزيفة واقعة تحت سيطرة وقمع العقل الجماعي الموروث، أو سيطرة الأطر النظامية والتنظيمية المقررة من سلطة فوقية، فلا تسمح

(18) أريك فروم . المجتمع السوي . مرجع سابق . ص 282 .

(19) باسمه المنلا . قياس العلاقات الاجتماعية (السوسيومترى) وتطبيقاته في الميدان التربوي وفي جماعات

العمل . ط1. (بيروت . دار العلم للملايين . 1990). ص 11

بالتعبير الحر عن الحاجات والرغبات⁽²⁰⁾ ولا تسمح بالاتصال الحر ولا بحرية الانتماءات، فلا يكون فيها الحوار إلا وهو متصحر ومنحصر، ولا يكون فيها الانتماء إلا واحدا مفروضا بشروط، وتصبح مواقع الذوات مجهولة لبعضها البعض، لا تعكس ولا تعبر عن الواقع والحقيقة، فالفعل التربوي الرسمي المنظم، مثله مثل الفعل السياسي المتسلط، كثيرا ما لجم انطلاق العفوية بفرض أدوار الطاعة، لا تنتج إلا أفواج المهمشين والمعزولين والمنبوذين واليائسين⁽²¹⁾ والذين لا يستطيعون للحوار الحرفي مجتمع مغلق شمولي سبيلا، إلا بالتكليف المزيف أو الصمت والانعزال والاغتراب، أو الهجرة أو حرق الذات، وما حالة "البوعزيزي" ببعيدة عنا، حيث تعبر عن أبلغ صور تصحر الحوار بين مهمش وسلطوي، وآل بهم الحال بالضرورة إلى العنف الموجه إلى الذات، والذي تعدى لينير الطريق لكل منبوذ ومهمش ويفتح كل جماعة مغلقة بعفوية وتلقائية بعيدا عن تصنيع أو تصنع المختبرات الفكرية، فأذن لهم الحوار الصامت وجمع بينهم العالم الافتراضي، ومكثهم من ممارسة عفويتهم وحولوا إراداتهم الفردية وانعزالهم إلى (قوة بحسب فرويد) ممثلة في إرادة كلية وتواصل شبكي، ألهم المنطقة العربية ثورة ما زالت في طور الانجاز تؤتي أكلها في الحوار وتحرر من كان مستعبدا دون أن يعي أنه مستعبد وكلمت كل من كان صامتا.

ج . عفوية علاقات الصداقة وانفتاح الحوار:

الصداقة بوصفها علاقة بين ذاتيتين من مواقع وجدانية واحدة، تقع في مقدمة العلاقات الاجتماعية، حيث تبدأ منذ الطفولة واتصالات الطفل بأقرانه خارج الأسرة بطريقة عفوية، هي ليست في نظر السوسيولوجيين من القضايا الفردية، أو هي شأن بين الفرديات تتعلق بتعلق القلوب وتآلفها، وتماثل الأفكار وانسجام السلوكات كما يتراءى لنا، ويتم مقاربتها بعدئذ كما لو أنها علاقة حميمية بين ذاتيتين، إن في الخير وإن في الشر، فهي أكبر من ذلك لما لها من طاقة وجدانية وأخلاقية في التحول إلى ظاهرة اجتماعية، تتأسس عليها مشاريع اجتماعية كالولاءات السياسية والزواج والمصاهرة، ومشاريع مؤسسية اقتصادية كالشركات، وهو ما جعلها محل اهتمام الفلاسفة وعلماء الدين والاجتماع والنفوس، بوصفها تضطلع بمهمة الكشف عن مؤشرات المواطنة وتماسك المجتمع وتعاونه، فهي إذن

(20) المرجع نفسه . 9

(21) المرجع نفسه . ص 12

ظاهرة تدرس كما لو أنها متغير أساسي اجتماعي في شكل الشخصية، كما تدرس كظاهرة من أهم ظواهر التماسك الاجتماعي، حيث ترصد بمؤشرات التوافق والتحاب والتقارب والصحبة والشراكة والتعاون كظواهر أخلاقية، من حيث مدى انتشارها في المجتمع... الخ فما إن تنتشر الصداقة في مجتمع، بأن تصبح ثقافة تغشى الفئات والجماعات، وتكثر في أوساط الجماعة، حتى تتقلص مظاهر التنافر والكره والعداوة والالانسجام بين أفراد الجماعات المجتمعية . ذلك على الأقل ما أشارت إليه مفاهيم الصداقة في المرجعية المفهومية للمجتمع الأثيني وهي المرجعية التي تأسست عليها أفكار الحداثة في المواطنة . فقد ذكر أرسطو أن الصداقة هي أحد الشروط الأساسية لقيام الحياة الفاضلة داخل المدينة⁽²²⁾

ففي ديننا تحتل الصداقة من حيث هي "الصحبة" مكانة الصدارة في العلاقات بين المسلمين، حيث كانت من أسى معاني الرفقة في رحلة الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة، حيث عبر عنها أبو بكر رضي الله عنه عقب إخبار الرسول له باختياره كصاحب ومرافق في السفر (الصحبة الصحبة يا رسول الله) وهي من دعاء المسلم في سفره حيث يردد(أنت صاحب في السفر والخليفة في الأهل والولد) وهي جزء من مخيالنا الاجتماعي الإسلامي حيث اقتبرن اللفظ بكل من عايش الحدث الدعوي من الرجال والنساء بكل فتوحاته وابتلاءاته مع الرسول في فجر الدعوة وأطلق عليها اسم (الصحابة والصحابيات) ليصبح ذلك مفهوما لمجتمع معياري في الحب والتآخي والتعاون، ليس من أجل التواد البيئي فحسب، بل من أجل إنجاز حضارة السلام بحجم حضارة الإسلام حتى إن الصداقة والصحبة، تعد في مخيالنا الثقافي من بين ما تركه لنا الرسول كمعلم نهتدي به حين وصف أصحابه بالنجوم (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) وليست وثيقة المدينة إلا مشروعا ينتهي في فلسفته إلى مبدأ التآخي الإسلامي الذي أنجزه الرسول في المدينة بين الأنصار والمهاجرين القاضي من الناحية الإجرائية بتقسيم أعباء الحياة، كل ذلك إن دل على شيء إنما يدل على مكانة الصداقة في كمفهوم للصحبة والتآخي في نسيج العلاقات الإنسانية كما يدل في الوقت نفسه على انحسار النبذ والتباعد والتصادم المفضي إلى العنف .

3. في معنى العنف بوصفه علاقة مضطربة :

⁽²²⁾ عبد السلام بن عبد العالي . في الانفصال . مرجع سابق ص 75

بداية قبل تناول مفهوم العنف نستحضره ليس مجرد انحرافات سلوكية إجرامية فردية طبيعية ونزوات فردية فطرية فيزيولوجية تكمن في المخ (الإنسان المجرم) كما فسرتة بعض النظريات أو حالة طارئة وشأن من شؤون الأمن يتعلق بردود الأفعال عن الاحباط تأخذ سبيل تأكيد الذات فحسب، بل نستحضره كظاهرة علائقية اجتماعية تصادمية أيضا، تتعلق بحسب نظريات علم النفس الاجتماعي بفشل المجتمع في ضبط الغرائز الفردية وعقلنتها وأشكال التفاعل السيئ الذي تضمرف فيه غرائز الحب والتعاون، بل هو ظاهرة عالمية تكاد تكون ملازمة للحياة والتاريخ كما رصدته الأكاديميات والبحوث النظرية والفلسفية، إذ وبحسب تحليلات " كولن ولسن" أنه ظاهرة سلوكية مصاحبة تظهر مقترنة بهرمية الدوافع التي وضعها " ماسلو" فيتحدث عن تدرج ظهور الجريمة وفقا لتلك الهرمية، حيث - وفي نظره - تظهر وتكثر بدافع الجوع، ثم بدافع الجنس، ثم بدافع الإحساس بالذات، أين يشعر الجاني والمعتدي بأن المجتمع هو المدان في ما فعله هو، حين أغلق عليه أبواب تحقيق ذاته وكرامته وحرية،⁽²³⁾ بل إن تركيبة العنف كسلوك دفعت بكثير من المحللين له كظاهرة علائقية، بأنه فعل مشترك يتساوى فيه في المسؤولية كل من المعتدي والمعتدى عليه، لاسيما في العنف الجنسي.⁽²⁴⁾ والسبب والشتم والازدراء والاحتقار كما هي أفعال عنف، فإنها لا شك سبب في توليد العنف المضاد، ولا شك أن التناوب بالألقاب والسخرية هو من جنس تشويه الهويات الشخصية والرمزية الدينية والخط من قدر الآخرين.⁽²⁵⁾ وسلوك العنف بما هو معقد كان محل تفسيرات عدة فهو في مقاربات علمية ذو أصل بيولوجي فيزيولوجي في المخ كما فسره لومبروزو، أو كما ينعتة "هانس برونر" بكونه فعلا وراثيا ينتقل من جيل إلى آخر⁽²⁶⁾ وأن النفس مثقلة فطريا بما يمكن على الأقل أن يدفع الإنسان للعنف كالأنانية،

⁽²³⁾ كولن ولسن. سيكولوجية العنف أصول الدافع الإجرامي البشري. ت. مالك الأيوبي ط1 (الاردن .

عمان . الأهلية للنشر والتوزيع . 2006) . صص . 42 . 46

⁽²⁴⁾ المرجع نفسه . ص 64 .

⁽²⁵⁾ أمارتيا صن . الهوية والعنف . وهم المصير الحتمي . ت. سحر توفيق . سلسلة عالم المعرفة . ع352

(الكويت . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . 2008) ص 22

⁽²⁶⁾ أحمد أوزي . سيكولوجية العنف . عنف المؤسسة ومأسسة العنف . ط1 (المغرب مطبعة النجاح الدار

البيضاء . منشورات عالم التربية . 2014) ص 88

وبذلك يشكك في فعالية كل مشاريع الإصلاح بأنها مجرد إهدار للوقت.⁽²⁷⁾ وهو في تحليلات أخرى تكاد تكون مناقضة، سلوك متعلم يتعلق باكتساب الاستجابة العدوانية عبر عوامل التنشئة الاجتماعية كما في نظرية التعلم الاجتماعي وغيرها⁽²⁸⁾ وهو بعد ذلك في منظومة "فرويد" ذلك الصراع النفسي بين مكونات الشخصية والذي يصاحب النمو ويلزمه، وعند "هوبز" هو ذلك الصراع "الكل ضد الكل" وعند ماركس هو ذلك الصراع الطبقي وديكتاتورية البروليتاريا، وهو أحد تجليات اللامعيارية عند دوركايم، وهو في منظور ريكو دوسيل "أنا القاهرة" أكانت فرداً أو مجتمعاً أم نظاماً سياسياً أو إمبراطورية المركز التي قهرت شعوب الهوامش، وحتى أنا أفكار الديكارتية والروح المطلق الهيجلية، أو ذلك الجوهر الأوحده عند سبينوزا لم يسلم أي منها من لؤثة العنف من حيث أنها مولدة لـ "أنا القاهرة"⁽²⁹⁾ فالعنف طبقاً لذلك هو في عموميه حالة أو مظهر علائقي صراعي يهدف إلى تحقيق السيطرة والهيمنة والاستحواذ والاستعلاء، وقد يكون ذلك في صورة العنف الحداثي أو العرقي أو الديني أو السلطوي أو اللغوي أو الأدبي أو التربوي أو الرمزي الثقافي أو الأبوي الأسري أو المؤسسي... الخ وهو حالة من العلول "أنا القاهرة" التي تتعاطى مع مفردات الوجود (ذوات، أشياء، مواضع) بمعاني القوة والقسوة والشدة والغلظة والاعتداء والإكراه، وتقف ضد معاني اللين والرفق والعطف والحنان والرحمة والتسامح والسلام والسلم، وبالتالي فهو سلوك لا عقلاني مستهجن في أصله يتعلق باستعمال القوة - قولاً أو فعلاً - في غير محلها، وقد اقتبرن في الدراسات الحداثية بالإرهاب والتخويف، كما يعبر عنه بالموسولينية والفاشية والفيشيستية واليهودية واستالينية... الخ. من حيث أن هذه النماذج أخضعت الأفراد والجماعات لطغيانها السياسي وأدمجتها عنوة ضمن مطلقاتها بالقوة الغاشمة، وقد يكون نتيجة اللامعيارية حين تصبح الحياة بدون مرجعية أخلاقية أو قانونية أو دينية وينفلت

(27) جون بروكمان . الإنسان الجديد . العلم عند الحافة . ت . مصطفى إبراهيم فهمي . سلسلة العلوم

والتكنولوجيا . (القاهرة . الحياة المصرية العامة للكتاب .) ص 47

(28) أحمد أوزي . سيكولوجية العنف . مرجع سابق . ص 91

(29) ريكو دوسيل . فلسفة التحرير . مشروع الذات المقهورة . قراءة فريال حسن خليفة . ط 1 . القاهرة .

الأفراد باسم الحرية من النواظم وضوابط القيم، ويصبح الإجماع مضطربا والتفاهم متعذرا والعلاقات تحت العتبة الدنيا من إمكانية الحوار.

أ. العنف كفعل ورد فعل مضاد، هو فشل للحوار في صور متعددة :

العنف . كما سبق من حيث هو فعل أو رد فعل . مفهوم مضطرب وملتبس، فكما أنه ظاهرة مستهجنة وسلبية اقترنت بالاعتداء، فإنه أيضا ظاهرة إيجابية كما تظهره التحليلات حين يكون طبيعيا ويتجلى كغريزة الدفاع عن الذات والحياة⁽³⁰⁾ وعندما ما تكون ممارسة للقوة من أجل استعادة الحقوق المغتصبة أو الدفاع عن الذات، بل يصبح واجبا مقدسا إن تعذر الحوار في استرجاع الحقوق المغتصبة كحالة الثورات ضد الاحتلال والتمهيش والإقصاء. ومهما يكن من ذلك فلا أراه إلا وهو في أغلب حالاته نتيجة منطقية لفشل الاتصال والحوار وعدم حصول التفاهم بين الذات المتحاور، ثنائية أم كانت جماعية وفتوية، فالحوار بذاته حين يكون بين الذات البشرية، لا مبرر له إلا بعد حصول التنازع الذي يتموقع هو الآخر متربصا بسيرورة الحوار، فيؤول به عند تعارض المصالح أو التكافؤ في الحق، كما يضمن "ليوتار" إلى إيمان الأطراف بضرورة انتزاع المصلحة من الآخر، فيفشل عندما لا تكون هناك مرجعية أو سلطة عليا لحسم الأمر⁽³¹⁾ فيظهر سوء الفهم في صورة النزاع المفضي إلى توقيف الحوار وبروز العنف الموجه إلى الذات كالإضراب عن الطعام والانتحار والحرق، أو الموجه إلى الآخر كرفع الصوت والتمهيش والاستبعاد والازدراء والضرب والاعتداء وقد يصل إلى القتل والعدمية.

والعنف ليس دائما فعلا ينتصر فيه القوي، ففي حالات العنف كرد فعل قد يتشكل في صورة ما يسميه "كونراد لورنز" بـ "الاستجابات الحرجة" من حيث هي تعبئة الطاقة العدوانية لمواجهة وضعية مأزقية تحمل إليه خطرا خارجيا أقوى منه يهدد حياته بشكل لا يستطيع تجنبه، إلا بالعنف والقتال، فيعبئ طاقته ويواجه الخطر، ويقلب الوضع الخطر لصالحه⁽³²⁾ أو يكون نتيجة منطقية للتوتر بين الذات

(30) أحمد أوزي . سيكولوجية العنف . مرجع سابق . 14 . 15

(31) ماتفريد فرانك . حدود التواصل . الاجتماع والتنازع بين هيرماس وليوتار . ت. عز العرب لحكيم بناني . ط2002 . (المغرب . افريقيا الشرق . 2002) صص 6 . 7

(32) مصطفى حجازي . التخلف الاجتماعي . مدخل الى سيكولوجية الانسان المقهور . ط8 . / (لبنان . بيروت . المركز الثقافي العربي . 2001) ص 235 .

والأشياء عند حصول عدم الفهم وفقدان القدرة على التحكم، فيظهر في صورة الإتلاف والتدمير. وسواء تعلق الأمر بعدم التفاهم الحاصل عن ذلك الحوار الذي ينشأ بهدف حصول المعرفة كما هو الحال في فشل الحوار بين العلماء، فيسود الرفض بينهم ويتموقع الكل في حصونه العلمية والفكرية، فتنشأ عنه جماعات فكرية أيديولوجية متعصبة مغلقة، أو بهدف إنتاج صيغ المواطنة والشاركة الوطنية كما هو الحال في فشل الاتصال والحوار بين الفئات والائثنيات والأيديولوجيات والمذاهب، أو الحاكم والمحكوم، حيث تتضارب المصالح وتتعارض الأهداف ويذهب العدل وتضيع الحقوق ويتعذر التوافق أو الإجماع، فيصير الأمر إلى العنف الذاتي والتعبير عن الظلم بالإضراب عن الطعام أو الانتحار وحرق الذات أو الهروب والهجرة، أو النزاع الوطني قد يصل إلى الحروب الأهلية، كما حصل في لبنان والجزائر والعراق وسائر الدول العربية .

وقد يكون بهدف تبادل المنافع، كما هو الحال في الحوار بين الشركات والمؤسسات، فيسود حين فشله منطق الحيل والتنافس على التفوق في الربح والتغذية العمودية (الكبير يتغذى بالصغير) أو بهدف السيطرة عليه، كما هو الشأن عند شعور الاستعمار بالحاجة للحوار والاتصال لمعرفة المستعمر من أجل الهيمنة والتحكم والاستغلال بأقل الخسائر، فيلجأ إلى الاتصال بالآخر المضطهد المسلوب الحرية وفتح الحوار معه من أجل معرفة بنياته الذهنية والثقافية ونياته والإحاطة العلمية بكل وجوده النفسي والاجتماعي والتاريخي وتقدير مقدراته وإمكاناته وقوته .

وسواء أكان عدم التفهم والتفاهم وفشل الاتصال ناشئاً عن الحوار الذي تأسس بهدف فض حالات التنازع القائمة ونشدان الصلح وتوقيف العنف، أو ناشئ عن اضطراب عن المصالح والحاجات وتعارضها في مؤسسة، أو ناشئ عن الحالة الاستبدادية المغلقة وتقلص شبكة الاتصال ونقص الشفافية والمعرفة، أو ناشئ عن عدم الثقة بين المتحاورين والمتواصلين وسوء إدراك الذات لبعضها البعض ...الخ ففي كل هذه الحالات يكون العنف بغض النظر عن مدى مشروعيته وعن صيغه ووسائله، قد تأسس كسلوك انفعالي أو واع نتيجة فشل الاتصال والحوار، ويتمظهر في ممارسة الضغط والإرهاب والتهديد والإقصاء والقتل والوعد والوعيد، سواء أكان لانتزاع الحقوق والحريات وإعادة المغتصبات منها، أو كان لاغتصاب الحقوق والتطويع، أو التطبيع القسري والاستلاب والعدمية، أو السطو على الممتلكات والانتقام .

ثانيا . من مشاهد تصحر الحوار في المجمعات ونمو نزعة العنف .

من المفيد قبل أن نرصد المشهد أن نشير إلى بعض ما أرصت عليه الدراسات السيكولوجية والاجتماعية من رصد لردود أفعال الشباب العربي العنيفة على ما يعيشونه من أنماط التربية التسلطية ونقص الحوار ومنابره الحرة، وتقلص اللغة وقصر التداول الكلامي، من حالات الانعزال والشعور باليأس والإحباط والخوف من المستقبل واللامن كما نلاحظه في الدوائر الاجتماعية ذات الحضور المكثف للشباب، كالجامعات

فالجمع " أساتذة شباب" يحضر إلى الجامعات في الزمان والمكان كما لو أنهم كائنات وذوات متفردة تفعية مهنية، تؤدي كل مفردة وظائف تدريسية جامدة، ضمن أطر قانونية رسمية، يلقي الأساتذة محاضراتهم الأكاديمية كما لو أنهم يبلغون الأخبار العلمية وما ابتدعوه الآخرون من معارف جاهزة، إلى الأجيال ويديرون الحصص التطبيقية حول تلك المحاضرات بإعادة سرد ما قيل ومحاولة إسقاطه بعنف على الواقع، ويكون كل واحد منهم في علاقة اتصالية مباشرة مع منافعه في النسق البيروقراطي للمؤسسة، وقليل ما يجري الحوار من حيث هو كلام معتاد بين الأساتذة في الفناء، أو في قاعة الأساتذة، من مثل كيف الحال ؟ واش راك،؟ عندك حصة؟ ..الخ ويرد الآخر بقدر الكلام الذي سمعه على عجالة (لباس، نعم) بجمل قصيرة ويغلق اللقاء، وينصرف الكل إلى حيث مبتغاه، وفي المدرجات يكثر الاستاذ من الشرح ويستأثر بالكلام العلمي الذي كثيرا ما يكون عنيفا على الوضع المحلي الثقافي، وفي هذا المشهد إعتاد الطالب أن يسمع ولا يتكلم إلا قليلا، وإذا التقى الجمع المجمعين في اجتماعات مهنية، حضر الكل مرغما ومتثاقلا، يجلس كل واحد صامتا ويسمع للأوامر والنواهي وحوار الجزرة والعصا، وإذا حضر إلى الملتقيات والندوات العلمية، حضر كل واحد في أغلب الحالات ممثلا وناقلا لآراء الآخرين بوصفها آراء حازت على الشرعية العلمية، فيتم التواصل والنقاش حول الآخرين، وربما حول مشكلاتهم وما ابتدعوه من حلول عفا عنها الزمن، لا علاقة لها بذواتنا وحاجتنا ومحيطنا، فتلغي الجماعة في هذا الحضور صفتها كجماعة علمية، وتغيب كينونتها كوجود في العالم، وتغيب الذات باسم العلم (قالت العلوم) حيث تبقى ذواتنا ومشكلاتنا ومحيطنا محكمات الإغلاق والإقفال لا تجد لها الأجيال حلا ولا فتحا.

ويحضر التلاميذ والطلاب بفعل قانون قسري يجمعهم في أوقات محددة ويسمح لهم بالحركة المحددة وكذا الكلام المحدد بترخيص من المدير أو المعلم،

يجلسون في مواقع دنيا؛ لأنهم لا يعرفون، يعلوهم أستاذ أو معلم، لأنه يعرف ومحتكر للمعرفة يوزع نظراته بشكل مهيم على الكل، في حين تشد إليه كل الأنظار بوصفه المالك لحاجة الكل إلى المعرفة، والتي من أجلها تشكل الحضور في تلك التراتبية . ولا يكون الحوار في هذه الوضعية إلا عموديا ينزل من وسيط رسمي إيديولوجي (معلم، مدير) في أغلب تواصله المعرفي، إلى متلق مستهلك لمعرفة جاهزة. عبر جمل قصيرة خضعت في المخابر التربوية للتقعيد والعقيد والتقنين فقتلت كل احتمال للعفوية والتلقائية وتربية الخيال والفكر، فيغترب الكل في هذه المعرفة الموصوفة باليقينية المعروضة كوثن . ففي دراسة انجزناها حول التفاعل الصفي تبين أن العلاقات الصفية في البيئة الصفية في المدارس الجزائرية تركزت حول نموذج "التفاعل المباشر" كما يسميه فلاندرز من حيث هو تفاعل بالأوامر والنواهي والتحذير والتوبيخ وحضور السلطة⁽³³⁾ .

وبنفس صيغة الحضور في الجامعة والمدارس، يتكرر المشهد في المساجد، حيث نحضر كثافات مجتمعية مجمعة، متعلم وغير متعلم، فقير وغني، صغير وكبير، ذكر وأنثى، ككائنات مغلقة نخضع لهبة المكان وهيمنة الموقف، فلا حديث بينها يجري ولا حوار، مشدودون بأنظارنا من دون وعينا وقلوبنا إلى الإمام الخطيب الوحيد، وكثير منا ينتظر نهاية اللقاء المغلق وجدانيا ومعرفيا وتواصليا، حتى يتحرر من المغلق ليستأنف وجوديا إغلاق آخر في الشارع والأسرة فنغترب مرة أخرى.. وهكذا دواليك . ومواقف الحياة اليومية في حياة العربي تعج بمظاهر التصحر اللغوي وفقر الاتصال وإغلاق الخطاب، ومن دون تعميق البحث في الحياة الثقافية والاجتماعية، يكفي أن نسوق عينة من مواقف حياتية (في الأسرة، والسوق، والإدارة) فاضحة في فقرها الاتصالي وواضحة في تصحرها اللغوي، وهي مشاعة وقد مر عليها معظم المواطنين العرب بصيغ مختلفة، ففي الأسرة فمعظمنا حين كنا أطفالا، ومعظم أطفالنا اليوم تلقى عند السؤال أو الاستفسار أو الاقتراح، الجواب الأبوي التالي " أنت تعرف خير مني افعل ما قلته لك " . وكلنا تلقى في السوق وحياة البيع والشراء عبارة " هذا هو السوق وهذا هو الثمن أشري أو خلي " . وكلنا واجهه في

(33) العربي فرحاتي . انماط التفاعل وعلاقات التواصل في جماعة القسم الدراسي وطرق قياسها . دراسة ميدانية لدروس اللغة في المدرسة الاساسية الجزائرية . ب.ط (الجزائر) . بن عكنون . ديوان المطبوعات الجامعية . ب.ت (صص 226 . 234)

الإدارة وتلقى الاجابة " هذا هو القانون علي وعليك " فكل هذه التعبيرات مغلقة للحوار وهي من جنس " هذا ما قاله الله وهذا ما قاله رسوله " فلا تترك هذه التعابير أية فرصة لفتح الحوار وتبادل الرأي وتراسل الكلام .

ثالثا : تصحر الحوار وإنتاج الاغتراب والعنف:

تأسيسا على أن الانتماء من حيث هو استشعار بتوحد الذات مع الآخر (الجماعة) هو الوجه الايجابي الطبيعي للإنسان في علاقاته مع الآخر، رغم مقولة "سارتر" القائلة بأن الآخر جحيم ولكني من خلاله أرى نفسي، وهي المقولة التي لا تصدق إلا على النفس المريضة ولا تعمم⁽³⁴⁾ فإن الاغتراب من حيث هو اللفظ الذي يقابله في الأنجليزية "Alienation" ومن حيث هو في أبسط معانيه، يعبر به عن مظاهر الانسلاخ عن الآخر (المجتمع) والشعور بالوحدة والإحساس بالغربة والانعزال والإقصاء واللاتكيف، يكون هو الوجه السلبي غير الطبيعي في علاقة الإنسان بالآخر، حيث أن آدم بهبوطه بأمر علوي إلى الأرض نتيجة عصيان ربه اغترب، والطفل عندما ولد اغترب عن رحم أمه، والذات كموجود مغترب من منظور نشأة، عندما تكون خارج ذاتها، والعامل بالمنظور الماركسي مغترب عن عمله وإنتاجه وحتى ذهنه في علاقات الإنتاج الرأسمالي فيجرد الإنسان من إنسانيته، فيتمرد العامل على وسيلة العمل ويعنفها.⁽³⁵⁾ وعلى الرغم من صعوبة تصور المجتمع المثالي الذي يكون فيه الفرد غير مغترب في ذاته ومغترب عن الآخرين يحقق كل رغباته بحرية، إلا أن المجتمع الصناعي الرأسمالي، هو الصورة الأكثر خصبا لتفريخ حالات الاغتراب النفسي والاجتماعي كما هو مفهومه العام عند منظريه أمثال روسو وهيغل وماركس وفرويد وميلز وهبرماس... الخ⁽³⁶⁾.

والاغتراب في جذور الثقافة اللاتينية بمعنى انتقال قسري للملكية، أو انفصال عن الله، أو انقسام الذات وتجاوزها لذاتها، أو التخلي عن الحرية والاتحاد الكامل مع الإرادة الكلية السامية والتنازل الكلي عن الحقوق الفردية، إن في ما أعده أفلاطون ومن بعده سانت أوغسطين، كحالة إيجابية عندما تكون الذات مغتربة عن

(34) كولن والسن . سيكولوجية العنف أصول الدافع الإجرامي البشري . ص 106

(35) رمون بودون . فرانسوا بوريكو . المعجم النقدي في علم الاجتماع . ت. وجيه أسعد ج 1 . ط. / .)

سوريا . دمشق . وزارة الثقافة . منشورات الهيئة العامة السورية . 2007 . ص 43

(36) المرجع نفسه . ص 44

ذاتها في التأمل (التأمل الحق والاعتبار في الذات الإلهية) وإن في ما أعده روسو في العقد الاجتماعي⁽³⁷⁾ هو في كل حالاته مظهر سلوكي ناتج عن وضع قهري سالب للإرادة الفردية يتجلى في المقاربة السوسيولوجية كما لو أنه انحلال الروابط العلائقية بين الفرد والجماعة، سواء في حالة الاتحاد، حيث تغيب العلاقة، وإن في حالة الانفصال، حيث التباعد وفتور علاقات الشخص مع الآخرين، وشقاق وصراع بين الذوات، وتمزق مشاعر الانتماء، وهو في النهاية فقدان للوعي وحالة الشخص السيكوباتي المغترب عن عقله أو المغترب داخل الذات⁽³⁸⁾ وفي المقاربة السوسيولوجية كذلك هو وعي مزيف يجعل الفرد كما لو أنه مصاب بالعمى فيعتقد بأنه سعيد ولا يرى تعاسته التي عليه، ويكون له انطباع بأنه حر طليق ولا يرى الأغلال التي تحوطه من كل جانب... الخ⁽³⁹⁾ وعند "دوسيل" هو الشخص أو المجتمع المقهور الذي لا يعي ذاته في ظل المطلقية، أو هو حالة الخارجين عن نسق النظام الطاعي، وعادة ما يكونون من صنف الحكماء الذين يرون ما لا يرى فيصبح مقهورا ومغتربا .⁽⁴⁰⁾ ولعل هذا ما جعل "فروم" يعممه على كل الوجود الإنساني، ويعتبره ظاهرة كلية، فكل الأوثان التي ابتدعها الإنسان وعبدها وخضع لها (المال، الآلة، الصناعة، العباد، الأفكار، السلطة، والزعيم، العقل...) كلها من اغتراب الوثنية، تجعل الإنسان يسقط قدراته ويصبح شيئا تابعا لقدرات وإمكانات الآخرين .⁽⁴¹⁾

وقد رصدت الدراسات أبعاده في خمسة وهي (العجز، والإحساس بالضعف حيال مواجهة المواقف الاجتماعية، واللامعنى، عندما يكون الفرد ذا إحساس بأن الحياة لا معنى لها، واللامعيارية وحالة "الأنومي" وانهيار المعايير الناظمة للسلوك، وحالة العزلة الاجتماعية والوحدة والفراغ النفسي وفقدان الأمن. كما يدرج الفرد المتمرد عن الواقع والمألوف، وكذا التشيؤ باعتباره تحويل الذات إلى موضوع، يباع كما تباع الأشياء (حالة العبيد) . وفقدان الهدف من العمل والنشاط

(37) المرجع نفسه . 42 .

(38) عبد اللطيف محمد خليفة . مقياس الاغتراب . ط 2005 . (القاهرة . دار غريب للطباعة والنشر

والتوزيع . 2005 .) ص 14.5

(39) ريمون بودون . فرانسوا بوريكو . المعجم النقدي في علم الاجتماع . مرجع سابق . ص 46 . 47

(40) ريكو دوسيل . فلسفة التحرير . مشروع الذات المقهورة . (مرجع سابق) ص 62

(41) إريك فروم . المجتمع السوي . ت. محمد منقذ الهاشمي (مرجع سابق) ص 233 . 237

أو الحياة . والشعور بالاغتراب يؤدي بالضرورة إلى تعاطي المخدرات والانتحار...الخ.⁽⁴²⁾

أ . تصحر الحوار وإنتاج اغتراب الشباب العربي :

المتأمل والدارس لأنماط التواصل وثقافة الحوار في الوطن العربي، يكشف بسهولة أن نمط التواصل والحوار الشائع بين الأفراد والفئات والمؤسسات في كل المواقع، يكاد يكون مشاعا في نموذج ما يسميه علماء النفس بـ " التبادل بين الأنا الطفلية (الآثمة)والانا الوالدية (الرقابية)" ونموذج التبادلات المتقاطعة (الرافضة) وهما نموذجان غير منتجين وغير فعالين، حيث الاتصال السلبي الذي تنشأ عنه مشاعر الضيق والصراع والشجار رغم بعض حالات الاكتمال الذي تظهر عليه التبادلات الاتصالية، حين يكون التواصل من مواقع الأنا الوجدانية الواحدة، في التبادلات الطفلية والتبادلات الوالدية، ومن الطبيعي أن تنحصر وتضيق . مع إشاعة هذه الأنماط – نمط التبادلات الاتصالية بين الأنا الراشدة إلى الحدود الدنيا، وهي النمط الذي يرشحه حجازي كمخرج من تأزم الأنا الاتصالية إن صح التعبير.⁽⁴³⁾

وصورة الحوارات الطفلية الوالدية والمتقطعة، هي السائدة للأسف في كل دوائر الحوار المجتمعية في مجتمعنا العربي، فالوضع الأسري العربي الرقابي المتأزم حواريا القوائم على النواهي والأوامر والعلاقات الخطية العمودية والاستجابات الانفعالية والترهيب والتخويف، والوضع الاجتماعي الرقابي المتصحر حواريا في ندرة نواذيه ومنابره الإعلامية الحرة، ووسائله الترفيحية وأحزابه وجمعياته ونقاباته ومراكزه الثقافية ومؤتمراته ومنتدياته، والوضع الثقافي الرقابي المتأزم حواريا القوائم على ثوابت الماضي من العادات والتقاليد والثقافة الأبوية الصارمة غير القابلة للحوار والنقاش، كما لو أنها قوانين معيارية فوقية وعلوية، والوضع المؤسسي القانوني الرقابي المغلق والمشروط في الاستقبال والأعمال والإخراج (المبني مراقب)، والوضع السياسي الدوغمائي الفيتشي المطلق الرقابي المغلق على ذاته، وغير المنفتح إلا على فئة بعينها دون الفئات الأخرى، والوضع الحضاري المزدوج التبعية (للمقابل /المابعد) والوضع الاقتصادي المغلق على طبقة عريضة دنيا وأخرى مسحوقة، شكل الشباب منها نسبة عالية، هي كلها أوضاع للمجتمع الرقابي المغلق العضوي، بحسب توصيف

⁽⁴²⁾ عبد اللطيف محمد خليفة . مقياس الاغتراب (مرجع سابق) صص 14 . 20

⁽⁴³⁾ مصطفى حجازي . الاتصال الفعال في العلاقات الإنسانية والإدارة (مرجع سابق) صص 86 . 99

"بوبر" ومجتمع التسلط بحسب "حجازي" ومجتمع العنف الرمزي بتعبير "بورديو" والمجتمع الخرافي الوثوقي بحسب آخرين، ومجتمع الانفصال واللاتواصل في مقالنا، حيث يعيش حالة الانفصاليات الشاملة والانفصال بين الأفراد والجماعات والمؤسسات، وهو في كل هذه التوصيفات مجتمع سلب الإرادات الحرة وقامعها، لا يمكن أن ينتج إلا اغتراب الذات عن ذاتها، لتكون ملحقة تارة محتمية بشعارات الدين وكان أبي، وتارة تنشط لتكون ملحقة بالأيديولوجيا، وتارة بالتقنية والمال... الخ فهي في وضعية تعيش خارج ذاتها، ممزقة في انتمائها الحضاري بين (النحن التراثية/ والتبعية للآخر المتفوق) وكلاهما يسلبان الأنا حاضرها، فتعيش اغترابا حضاريا. ومثل هذه الذات لا تستطيع أن تكون إلا وهي ذات متأزمة داخليا.

و تحت معاناة ووظاة ما كشفه ابن خلدون قديما من تحكم عقدة "الغالب المنتصر" تعيش فئة الشباب حالة نكوص وإحباط وانعزال وقناعات سلبية وجنسائيات منحرفة وعدوانية وتعصب، ولعل ذلك هو ما توصلت إليه أحدث الدراسات العربية السيكولوجية منها والسوسيولوجية وحتى الأنثروبولوجية في توصيفها لذات الشباب العربي، الواقع في كل سلوكاته تحت تأثير حتمية "اللا شعور" كدراسات حجازي للذات العربية بوصفها ذات مقهورة ومهدورة مكبوتة، والدراسات المسحية المختلفة المواضيع حول الشباب، فالمسوح الشاملة، التي أجراها "أحرشاو" لتلك الدراسات أكدت على أن الشباب العربي يعيش الخوف من المستقبل والاكتئاب والانفصام في الشخصية والتزمت والقلق والتمرد والضيق والإحساس بالاضطهاد والاستبعاد، مثقل بالمكبوت الجنسي والثقافي، تتجلى في سلوكات الخجل والهروب من الواقع والشروع والضيق والانطواء واللامبالاة والفشل والعجز والعدوانية... الخ. ⁽⁴⁴⁾ ولسان حاله الذي لا يجد فرصة للتعبير به يقول ويصرخ "يا رجال الدين اسمحوا لنا أن نحرق أجسادنا، لأننا لم نجد للتعبير عن ذواتنا إلا بحرقها". وتعيش الفتاة الرمزي في أعماق صوره غير قادرة على إشباع رغباتها والتعبير عن حاجاتها، فهي مؤودة لغويا وفكريا ووظيفيا، ورغم ما يعبر عنه مظهرها كما لو أنها في عرس دائم كما وصفها السيكولوجي "فاخر عاقل" وفسرت الدراسات كل ذلك بجملة من المرجعيات يمكن اختزالها هنا في التسلط وثقافة المنع والتحریم،

⁽⁴⁴⁾ الغالي أحرشاو . واقع التجربة السيكولوجية في الوطن العربي . ط 1 / . (المغرب . الدار البيضاء . المركز

وقلة الحوار وجفافه وغياب التفاهم والتفهم والقمع، وهي وضعيات متأزمة تؤدي إلى التمثل اللاواعي للأوامر والنواهي والانفعالية، أو التمرد والرفض المطلق واللامعيارية، أو الهدوء الذي يسبق العاصفة كالزلازلات الأرضية والمجتمعية الثقافية والمؤسسية.⁽⁴⁵⁾

رابعاً : تصحر العلاقات في الوضع العلائقي الحضاري الدولي وإنتاج العنف والعنف المضاد:

تحاول بعض الدراسات السوسيولوجية وما يجري من نقاشات وحوارات فكرية، أن تؤسس العنف كظاهرة مجتمعية على ما ترسب في وجداننا ولا شعورنا الجمعي، وما هو مبثوث في تأويل ثقافتنا الإسلامية من لغة عنيفة، رغم أن سيدنا علي كرم الله وجهه قسم العالم إلى أخوة في الدين وأخوة في الإنسانية، ومن أجل إنجاح الحوار تنازل الرسول عن نبوته لأبي سفيان المفاوض نيابة عن قريش، وأوصانا بالحب للآخر كما نحب لأنفسنا، وأوصانا بإفشاء السلام وإكثار النصح، ومن أجل التفاهم كوثر لغتنا القرآنية بمعاني الاتصال والتواصل بالأشياء والناس والأفكار، وأشبعت بالفاظ التسامح والرفق والحب والحنان والعطف والإصغاء والاستماع كفضائل لسانية سامية. ورغم ذلك يشار إلى ديننا بأنه دين اللاتواصل جراء تصرفاتنا وسياساتنا وتديننا الخاطئ. ومع ذلك فليس نحن من أسسنا لـ "الاحوار واللاتواصل" كما تدل الوقائع الحضارية والدراسات التاريخية لتصحر الحوار، بل يكون من الموروثات الاستعمارية وقيمه الموصوفة بالحدثية

فلعل أبرز صور التصحر الحضاري للحوار والعلاقات هي صورة الحدث وعلاقتها بالآخر (الغرب وباقي العالم) فمنذ أثينا الفلسفة والفلاسفة، والعالم مقسم إلى (غرب/شرق) ومنذ أثينا الفلاسفة، والعالم من غير أثينا، إلى العالم اليوم من غير أمريكا وأوروبا، هو عالم بريري وهمجي مهدد للحضارة يجب تحضيره عبر تقنيته وقاتله، حيث لا تنفع معه إلا التحديث بالقوة من الخارج وفرض القيم الديمقراطية والبرالية (نهاية التاريخ عند فوكوياما) أو من الداخل عبر زرع الجدل التصادمي بين الثقافات "هنتغتون وصراع الحضارات والثقافات" واستحداث ما يسمى بالفوضى الخلاقة في الشرق الأوسط. بتهديم البنيات الاجتماعية التراثية سواء عند التفكيكيين أو الوظيفيين البنيويين، حيث مارسوا عنفهم الفكري على لغاتنا

وثقافتنا ورموزنا وتاريخنا بعنف، والاستشراف أبلغ دليل على ذلك والنماذج الفكرية كثيرة دالة على ذلك نحيل القارئ إليها في ما لخصته الباحثة الجوهرة⁽⁴⁶⁾ وبعنقهم الفكري انتجوا فينا عنفا مضادا، حيث يتصاعد النداء لتأسيس علم الاستغراب كما هو النداء الذي أطلقه "حسن حنفي". ويمكن أن نستحضر في هذا المقام أيضا مفاعيل الأدب الموصوف بالرفيع المنتمي للتفكيكية والبنوية والذي تطاول على تاريخنا في مسرحيات عرضت في الجزائر "محمد خذ حقيبتك، كلاب الدوار، الصواريخ التي لا تنطلق، التاريخ في المذلة، إذا عربت خربت، أصحاب قل هو الله، كل هذه الألفاظ والمقولات العنيفة كانت ثقيلة على النفس، فكان لها . مع غيرها . رد فعل انفجاري تصادمي زلزالي في الجزائر.

خامسا : تجليات التصحر في العلاقات الرسمية والمؤسسية وإنتاج

العنف

فكما أن الاتصال والحواريين الذوات والجماعات يتقلص إلى حدوده الأدنى في الوضع التوتاليتاري، حيث هيمنة الرقابة على الكلام والاتصال وقلة التجمعات وحضرها كما هو المشهد العلائقي في المجتمعات العربية عموما، لاسيما ذات الميراث الثقافي السائد أيام الاحتلال والمستمر في ما بعد الكولونيالية الموسومة بثقافة الصمت، فإن المشهد الحواري في الانفتاح المسمى بالديمقراطي في العالم العربي، لم يكن أحسن حال من الوضع التوتاليتاري،

فحقوق العارف الأمر الكلي الشمولي المختزل للدولة والشعب، أعلى بكثير من حقوق الفرد أو الشعب أو الدولة توجب له الطاعة والانصياع. هي المقولة السائدة في دولة الرقابة، حيث أن المؤسسات المكونة للدولة تراتيبية في بنيتها السلطوية والاتصالية، فالرئيس والمدير والمسئول في مختلف المستويات، دونهم أسوار وحواجب وستائر وأركات تعزلهم نفسيا وإنسانيا واجتماعيا عن مستخدميهم، فلا يتحدثون إليهم ولا يستمعون ولا يستقبلون إلا بمقدار قانوني رسمي مهني، حيث يتم الحوار بلغة قانونية، يحترز كل متكلم مما يتكلم ويتلفظ به، فالدولة الرقابية دولة الخوف أضاعت بما رحبت به العلاقات الإنسانية، حيث تماهت مع مفهوم القانون بوصفه

⁽⁴⁶⁾ الجوهرة بنت بنحيت آل جهجاه . أثر النظرية النقدية الادبية في تنشئة العنف والإرهاب الفكري .

ردعا وفروض طاعة وواجبات مهنية، فلا ينشب نزاع مهني إلا وتنبأت الإدارة وعملت على فشل الحوار أو حسمته لصالحها، لنقص اللغة الحوارية وقنواته العادلة، وهيئ الأمر بإحالاته وترحيله إلى العدالة التي هي امتداد للسلطة والمؤسسة الرسمية، ولا يجد من بداخل المؤسسة إلا الاحتجاجات حول حقوقه، ومن بخارجها أغلقت في وجهه مداخل مؤسسات بالشروط الإقصائية والانتقائية، كما أغلقت بأسوارها وانعزلت. فبقي الشباب يتوسل الدخول إلى هذا المغلق بالشروط الإقصائية حتى عند امتهان كرامته، فلا يجد إليها سبيلا فيرجع مكسورا مدحورا مهانا في كرامته يحاور ذاته بالهجرة. ولعل مفهوم الاغلاق السلبي كما صاغه "ماكدوكالد" يمكن أن يصلح تفسيراً لوضعية التواصل العربي، حيث اللامبالاة التي تظهرها السلطة تجاه أصوات المحتجين ولا تريد سماع الاحتجاجات، ولا تسمح بالتعبير عن الحاجات، فتتعامل بانتقاء ما تريد سماعه وتهمل ما عداه كما تفعل حواسنا كفعل اقتصادي، هي التي تدفع إلى العنف من أجل إشباع الحاجات حيث يفرض الصوت بالصراخ والقوة، فيصبح العنف بذلك كما لو أنه طريق وحيد لتحقيق الذات، ولذلك لم يعد العربي يثق في اللغة والمفردات الدالة على الوحدة والتضامن والتسامح والوطنية والتجاور والحب، فحين يسمعها تتداعى إلى ذهنه المفردات النقيضة ولا يستأنس إلا للفعل العنيف.⁽⁴⁷⁾

سادسا : تجليات تصحر الحوار في العلاقات المدرسية وإنتاج العنف

فإذ عدنا إلى المقاربات التربوية للمدارس الحديثة من حيث تأسيسها واتجاهاتها وفلسفتها فسنتقف على المبررات التربوية لهذا الوضع المتأزم للحياة في العالم، فالمدارس بوصفها مؤسسات اجتماعية مدينة لكل ما هو ثقافي وأيديولوجي وخاضعة أشد الخضوع للبنيات الثقافية، فلم تفلت من حتمية تمرير قيم التسلسل حتى وصفت بأنها مؤسسة للعنف الرمزي بامتياز، وإن أظهرت غير ذلك كما سنرى. وأساليها لم تبرح الأمر والنهي والزجر والترهيب والاهانة والعقاب، حيث تطغى على الكلمة الطيبة واللين والحب والترغيب والحوار، فلا يوجد فيها إلا الكلام المطلق والتععيد المغلق رغم وصايا كل الأديان وكل منظري حقوق الإنسان على حد سواء . ومن جانب آخر فالمدرسة من حيث هي مؤسسة عمومية اجتماعية، وفضاء تربوي وملتقى لمجموعة من الفئات غير متجانسة في السن والمستوى الدراسي

⁽⁴⁷⁾ كولن والسون . سيكولوجية العنف . (مرجع سابق) ص 170

والفني، لغرض تعليمي مقصود، تعد الأرضية الأساسية المشتركة بين التلاميذ والمعلمين والفنيين والإداريين لممارسة التفاعل المطلوب لتمرير القيم الاجتماعية المقبولة والسائدة، وتحصيل التمثلات التعليمية والقيمية، وعادات التفكير السليم وإنتاج الكفايات اللازمة للنشاط الوطني لاسيما كفايات الاتصال والتواصل... الخ .

ومن منظور علائقي ينقسم المجتمع المدرسي وترتب أعضاؤه بحسب علاقات العارف بمن لا يعرف، حيث تخضع فئاته المركزية على الأقل (تلاميذ/ معلمون) إلى عقد رمزي تنتظم في ظله كل الفئات وفقا للتراتبية المعرفية، تحكمها قوانين بيداغوجية نظامية مؤسسية، بما يحدث التفاعل المناسب لتحقيق الأهداف التربوي، وتتجلى عادة في مجموعة من المعايير والقيم والقواعد والأعراف الانضباطية التي تحمي العلاقات الوظيفية والتواصلية بين الفئات من الخروقات وكل أشكال الانضباط، وعادة ما يصاغ هذا العقد بين المعلمين والتلاميذ والإدارة في مدارسنا ضمن محور: الأمر/ الطاعة، إن لم نقل: السيطرة / الخضوع، لأن ما أسمىناه بالقواعد والتي تشكلت كما لو أنها عقد، عادة ما تكون خاضعة لعلاقات النفوذ وغير تفاوضية؛ لأنها شكل من أشكال العلاقة بين الكبار والصغار/ والأقوياء والضعفاء / والتابعين والمتبوعين. وتأخذ في الجماعات المدرسية صورة علاقة الخبير، أي أن علاقة المدير المالك للخبرة البيروقراطية بالمعلمين تشكل خارج إرادة المعلمين الفاقدين لها، وعلاقة المعلمين المالكين للخبرة العلمية والتعليمية بالتلاميذ الصغار والضعفاء والمحتاجين لخبرة المعلمين تشكل خارج إرادة التلاميذ... الخ ومن ثمة فهي علاقات تنحاز إلى القوة الإكراه والنفوذ وتبتعد عن الحرية وفعل المبادرة، وهو ما يفسح المجال أمام تنامي النزعات التسلطية والإفراط في استخدام السلطة الأبوية، وهي القضايا المرتبطة والمنتجة لأعمال التمرد والعنف والانضباطية، وخرق الأعراف والقوانين. وهو ما نسميه بسلوك العنف والعنف المضاد

سابعاً : تصحر الحوار في العلاقات الأسرية وإنتاج العنف:

حتى لا تبدو الصورة كلها سوداوية ومأساوية في توصيفنا الآتي للأسرة، نسجل بداية أنها كباقي الأسر البيولوجية لا تخلو من الحد الأدنى الغريزي من الدفء والحنان والعطف والأمن وتوفير الحاجات البيولوجية والتهديبية الدمجية، وتجتهد في تأمين السلامة والصحة والتعليم والغذاء، ومع ذلك فهي أسرة بيولوجية أبوية تراتيبية وطبقية جنسية، يتموقع الأب فيها كالأمر والناهي، المستأثر بالسلطة المركزية لإدارة المال والإنفاق، والأم كائن مؤود ضعيف ملامة دائما، والأنثى مدانة والذكر

متهم، لا حظ لهم في أن يحيوا حاضرههم (طفولتهم وشبابهم) مطلوب منهم بأن يكونوا راشدين قبل الوقت، ولا حظ لهم في تخطيط مستقبلهم، ولا يستشارون حتى في ما يأكلون وما يشربون إلا على سبيل المداعبة، أسرة بحكم بيولوجيتها، هي في مكوناتها مطبخ وحمام ومرفد وسينما، لا هامش لها من الحرية والاختيار في ما تطبخ وما تشاهد، فالأسرة الجزائرية أسرة في علاقاتها الحوارية صامتة محكومة بثقافة الصمت كأنها تحت وطأة اللاشعور الجمعي والخوف من الحديث وثقافة السرية التي فرضتها حالة الاستعمار، فلا حديث بين الآباء والأبناء إلا بالأوامر والنواهي ومفردات الردع والجزر والحزم والانضباط، يجري حوار عمودي من راشد ذكر إلى صبيان وإنات تؤطره قوانين الأدب، حيث الكلام والسمع بمقدار، وبعد الإذن والإشارة، فالحوار في علاقاتنا الأسرية شديد التصحر فاللغة السائدة لغة الوأد للبنات ولغة الأمر والنهي للذكور، والزجر والردع لكل من تسول له نفسه من الأطفال في الإفصاح عن آرائه ورغباته وحاجاته، فيتراجعون إلى الصمت، وزادهم صمت في ما تعيشه الأسرة من الاستلاب التقني حيث اغتيل الكلام والحوار والاتصال الفيزيقي بمغريات وجذب التلفزيون والالكترونيات المعلوماتية، وجعلتنا كائنات ملحقة افتراضية أكثر منا كائنات واقعية، حيث انقطاع الإحساس بالواقع والانخراط الوجداني والفكري في الشاشة الرقمية والتلفزيونية، فنحن نحضر كأفراد متجاورين في المكان، ولكننا متباعدين في الإحساس والاهتمام ببعضنا، وبحكم الضيق في المكان (السكن) تزدحم الأجساد والكلام فتتنافر الوجدانات وتقلق النفوس وتتلغظ الألسنة بكل ما هو غير تربوي متسامح، فلا تجد الأم نفسها وهي العضو الملام إلا وهي آمرة وناهية ومتشاجرة مرة ومصلحة بين المتنازعين بين الأطفال مرة ومديرة للنزاع والشجار مرة، وحين تفشل وكثير ما كان ذلك فتبادر بالتهديد بالأب والتخويف به معلنة بذلك عن عجزها وفشلها بقولها (درك يجي باباك ونقولوا عليك) وهي عبارة تجري على لسان كل أم أقلقها ولدها وسلك سلوكا لم يرضها أو عصى أمرها من حيث هو أمر علوي يستوجب الطاعة، أو تشاجر مع أخيه، وبفعلها وقولها ذاك أغلقت الحوار ودمرت رميتها كأم تطاع وتحترم، وأخافت أطفالها من أبيهم وصار مصدر خوف بدل أن يكون مصدر حب . فهذا الوضع هو وضع أشبه بالوضع السلطوي التسلطي الشمولي الذي يحكم بالاتصال الفردي ويشد إليه الجميع باحتكار حاجات الجميع حتى لا ينتبه الجمع إلى بعضهم البعض فيكتشفون حاجاتهم المشتركة إلى الميلاد كإرادات حرة .

ثامنا : تجليات حصار الذات في تصحر الحوار في الوضع الثقافي

والعلاقات وإنتاج العنف

يبدو. تأسيسا على معطيات المخ، واستنادا على رؤية "جايتيس". أننا نحن العرب قد نكون ضحايا مخنا الأيسر كما كان الأسبرطيون ضحايا مخهم الأيسر الأسير بالمخاوف، كما وصفهم " كولن والسن" حيث فقدوا الابداع والابتكار والانفتاح والتواصل، فقد نكون نحن كذلك أسرى المخاوف التي تحكم مخنا الأيسر، فمحدودية كلامنا وتواصلنا اللغوي، يؤشر على تسلط وهيمنة المخ الأيسر المسؤول عن انضباط وتوجيه رغباتنا في نفق ضيق وأصبحنا أقل قدرة على التغيير، فالحالة العربية تكاد تكون أقرب إلى مواصفات المجتمع الإسبرطي الذي وقع في تدمير الذات أو التآكل البطيء، ففضى فيه على الابداع بسبب هيمنة الجانب الأيسر من الدماغ المهيمن على توجيه السلوك.⁽⁴⁸⁾ وإذا برحنا معطيات المخ وتشبهنا بالمجتمع الاسبرطي في انتاج الحياة العنيفة، وطرقنا الفعل التربوي الثقافي، فنجد أنه على الرغم مما يشاع من منظور نظرية الثقافة بأن التربية بوصفها ثقافة إقصاء للعنف⁽⁴⁹⁾ وأن الإنسان لا يصبح إنسانا إلا بالتربية والثقافة كما قال الفلاسفة، وأن التربية ليست إلا تعلمنا لكيفية ممارسة الحرية وتعلما لتجاوز النقص والوحشية، وأن الطفل المحروم تربويا هو محروم من كيفية استعمال حريته⁽⁵⁰⁾ ومن فتح مدرسة أغلق سجننا كما في المأثورات... الخ، إلا أنها أيضا قد تكون بحسب التحليل النفسي في طبيعته الفرويدية والذي يقيم علاقة مهمة وغامضة بالتربية بوصفها فعلا اجتماعيا، هي أيضا فعل عنيف على الذات لا تنتج إلا العنف⁽⁵¹⁾، ففي ظلها تكون الرموز (اللغة بكل مستوياتها ونظمها) التي تعبر عن حاجات الذات ورغباتها، قد

(48) كولن والسن . سيكولوجية العنف (مرجع سابق) ص 250 .

(49) محمد باداج . التربية كإقصاء للعنف . مقاربة نظرية . مجلة علوم التربية . دورية مغربية نصف سنوية .

ع/25 دورية مغربية نصف شهرية (المغرب . مطبعة النجاح . الجديدة . منشورات علوم التربية .

2003) . ص 136

(50) محمد بوبكري . التربية والحرية . من أجل رؤية فلسفية للفعل البيداغوجي . ط . (إفريقيا الشرق .

2000) ص 43

(51) مارسيل كراهيه . علم النفس التربوي . ت . رباب العابد . ط 1/ . (لبنان . مجد . المؤسسة الجامعية

للدراستات والنشر والتوزيع . 2007) . ص 114

فقدت وغابت، في ظل سيطرت التواصل العمومي في كل الأنساق (الأسرة، المدرسة، المؤسسة، المنظومة الثقافية والسياسية ..الخ) من حيث هو تواصل مفروض في آلياته ومضامينه خارج نطاق الذات، وفقد معها بالتالي تواصل الذات مع ذاتها، والكبت بعدئذ وفي ظل مجتمعات تحكمها بنيات ثقافية وأيديولوجية مسيطرة، (العنف الرمزي) هو الثمن الذي تدفعه الذات من أجل الحفاظ على التواصل مع الآخر في حدوده الدنيا، فمن شأن إفصاحك اللغوي عن رغباتك وحاجاتك وغرائذك، أن يقصيك بصفة نهائية من مشهد الحوار والتواصل، إن لم يقصك من مشهد الحياة، فاللغة كنسق رمزي للتواصل ليست إلا نظاما فرعيا لتدعيم النظام القائم يكرس السيطرة، وتعميم الأوهام، فهي إذن في حد ذاتها أيديولوجيا . فلا تقبل إلا بحد أدنى من التواصل وفي نطاق شروط الجماعة الأيديولوجية، الأمر الذي يؤدي بالتواصل العمومي هو الآخر إلى الانعزال الفئوي والإغلاق، ومن ثمة فالحضارة والجماعة بوصفهما بنيات ثقافية وأيديولوجية، لا يكونان في تحليلات فرويد ومن تبعه إلا في وظيفة القامع للأنا الفردية أو حتى للأنا أو النحن الجمعية، فيجعلان التواصل ينحصر ويتصحر بسبب ما تفرضه الحضارة وحياة الجماعة كبنيات معرفية وثقافية مغروسة في اللا شعور متسلطة

وإذا كان كبت التعبير عن الحاجات والرغبات الذاتية — كما في مقاربات التحليل النفسي . هو المصير المحتوم لـ " أنا " وانكفائها على ذاتها في مجتمع السيطرة، ويؤول فيه مصير الاتصال الجماعي أو العمومي إلى الانعزال والمحدودية، وفي ذلك — كما تؤكد معطيات التحليل النفسي — خطر على تطور الأنا وتعرضها لمختلف الأمراض العصبية، فإن الإغلاق اللغوي أو اللغة المغلقة بسبب الفعل الخارجي الذي لا يسمح إلا بتعبير عن نمط معين من الحياة، يضيف بنا إلى مشاكل أعمق تتعلق بخرق قانون الاختيار وحصره وانحصاره، ذلك أن الحياة قائمة على مبدأ الاختيار، فنحن نختار ما نأكل وما نشرب وما نسكن وما نعمل وما نركب وما نصاحب..فكذلك وبالتأكيد نختار ما نقول وما نتكلم وما نخاطب به الآخرين، وكل موقف مضاد لهذا الاختيار هو موقف خارج طبيعة الذات ونقيض للحرية، والأمر اللغوي التعبيري عندنا سار ويسير للأسف في هذا الاتجاه المانع للاختيار، حين نتجمد كما يقول " ريتشاردز " في القول بأن اللغة — بوصفها كلمات — هي مكتفية بذاتها وتتوالد من بعضها البعض — كما يدعي البنيويون — ولا علاقة لها بالواقع أو التجربة المعيشة أو المواقف الشخصية، ونفصل بذلك بين ما نقوله وبين ما نعيشه كتجربة، ونتجاهل

موقفنا من المجتمع وموقف المجتمع منا والتأثيرات المتبادلة بيننا، ونصبح في وهم التفهم لألفاظنا، ذلك في الوقت الذي تؤكد فيه الدراسات اللغوية استحالة الفصل بين الموقف واللغة، أو عزل التعبيرات الشفوية، والأفعال، وتعبيرات التجربة المعيشة، في أي محاولة للتفهم واستخلاص المعاني. فخوفنا من الحرية أو من الديمقراطية لا نجد له أثر في تحليلنا وبحثنا اللفظ في ذاته دون إدراج الجدل بين اللغة والمجتمع والفكر والواقع، فمقارباتنا للغة وأفكارنا كما لو أنهما كيانات مغلقة، كما نقارب الواقع والمجتمع ككيانات مغلقة على ذاتها لا علاقة لها بالذات، هي المخاطر المحدقة تسيء الفهم وتفشل الحوار، فدلالات الألفاظ وحدها كما هي مثبتة في المعاجم وثبتت دلالتها مسبقا في القواميس وثقافة الأجداد وتراثهم، أو في ثقافة الآخر المختلف وكما أرادها منتجوها الأصليون ومسوقوها عندنا، لا تفصح بالضرورة عن مشكلاتنا وعمما نريده في حياتنا، بل إن العلماء أنفسهم لم يتمكنوا من فهم الآخر المتجذر في التاريخ والتواصل معه وفهمه، إلا بدراسة آثاره الحسية ونشاطه ولغته الوضيعة وأساطيره وخياله وطقوسه وانجازاته... الخ ، ولعل هذا الانفصال بين اللغة والواقع هو ما عطل الحوار مع الوافد إلينا من المفاهيم من مثل الديمقراطية والمواطنة والمشاركة والحدثة والتقدم... الخ بسبب عصمها عن التحديد العلمي والتباسها وصعوبة موضعها وتعذر الإجماع حولها كما يجمع على مفهوم الدائرة مثلا، ومن ثمة تعذر طرحها كمواضيع وصيغ للتداول والحوار في بلادنا العربية، إلا من حيث هي صيغ ونماذج معدة للاستهلاك القسري، باعتبارها نماذج منتقاة ومعيارية لا تقبل النقاش إلا من حيث آلياتها وأدواتها، وهو ما يؤدي إلى بروز أشكال الرفض وفشل الحوار بسبب اللاتناغم بين المفاهيم والصيغ النموذجية وبين الأنظمة الإدراكية والواقع المعيش، ومع أن هذه المفاهيم الملتبسة في معانيها (الديمقراطية والحوار والشراكة والعدالة والحق في الحياة والعمل...) هي ألفاظ لا حدود لدلالاتها المتوالدة من ذاتها ولا حدود لتفسيراتها، إلا أنها غير مكتفية بذاتها كتفهم ومعان حياتية، إلا في ظل التجربة التي تكشف عن مساحة ممارستها التي لا تكون إلا ضيقة جدا في ظل قيود الطغاة والتسلط الأيديولوجي والرقابة الفكرية، كما هو الحال عندنا . فالديمقراطية لا تجوز ولا معنى لها ولا تستحضر في الحوار ما بين الثقافة العامة والثقافات الفرعية المتصادمة جراء التغيب المتعمد والمبرمج باسم ديمقراطية الأغلبية، لكل اللغات والثقافات الفرعية في بلداننا العربية مما أثر على علاقات المواطنة.

فكل ذلك كان قد غذى تصجر الحوار بتصجر أكثر، وجعله في كثير من الأحيان غير ممكن، وحدوده تتضاءل إلى الحد الذي تكون أكثر تشابها وتمائلا بالحدود المرسومة للمسجونين داخل المؤسسة العقابية، إن لم نكن مبالغين، حيث تحدد وتبرمج وتضبط اتصالاتهم وحواراتهم مع بعضهم، بحسب ما تسمح به قوانين المؤسسة وطبيعتها، وهو ما يسوغ لانتشار خوف الكل من الكل، وكل ذلك آيل عند تراكمه إلى العنف .

تاسعا : الاستبعاد الاجتماعي وحصار العلاقات الاجتماعية وإنتاج العنف.

يشير مصطلح الاستبعاد الاجتماعي إلى الحالات التي عزل فيها الأفراد بطريقة قسرية عن المشاركة في الحياة الاجتماعية (مدرسة، اقتصاد، سياسة، شركة، نادي استغلال الموارد المتاحة... الخ) أو حالات الانغلاق وعدم إفساح المجال للانتفاع وتوزيع الثروات بعدالة، وعادة ما يطلق المصطلح على الفئات المحرومة أو الفقيرة والمهمشة ثقافيا، وما يسمى بحالات التجويت (الجيتو) .⁽⁵²⁾ ولهذه الحثثات وضع الاستبعاد الاجتماعي بوصفه ظاهرة استبعاد جماعة لجماعة أخرى، كما لو أنه نقيض العدالة، وانتهاك للتضامن الاجتماعي.⁽⁵³⁾ بل يجوز لنا أن نقول انتهاكا لشروط المواطنة. وبغض النظر عن هذه المفاهيم والاعتبارات، فإن الاستبعاد الاجتماعي لا يكون طوعيا كما لا يكون طبيعيا، حتى ولو في حالات موانع الوراثة والعجز العضوي من المشاركة في بعض النشاطات، فذلك يمكن تجاوزه بطرق خاصة للتعليم والتدريب، وبالتالي فهو فعل من منظومة الأفعال الإرادية، فهو فعل إكراهي عنيف مضاد للطوعية والاختيار والحرية، فالفقير والمهمش والجماعة المستبعدة من المشاركة بسبب ثقافتها ولغتها، لا تريد لنفسها الحرمان ولا ترضاه حتى ولو بدت في تصرفاتها كما لو أنها رضيت بما هي عليها من التهميش والحرمان، فهو رضاء من نوع الخرس يتم بتسلط القوة، أو بالقوانين الاقصائية أو التمييزية العرقية أو الجنسية أو اللغوية أو الطبقية أو الأيديولوجية أو الدينية أو الظروف الاجتماعية القاسية الخاصة، أو بنقص المعرفة والفرد المشروط مهنيا أو اجتماعيا، وكلها

⁽⁵²⁾ جون هيلز . وآخرون . الاستبعاد الاجتماعي . محاولة للفهم . ت . محمد الجوهري . عالم المعرفة

ع344 . (الكويت . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . 2007) ص 24

⁽⁵³⁾ المرجع نفسه . صص 25 . 55 .

عوامل إرادية رصد أسبابها باحثون اجتماعيون أمثال "جون هيلز وآخرون" في مؤلفهم "الاستبعاد الاجتماعي" تذكر منها بعض ما هو مبثوث في ثنايا فصوله ما ذكره من نقص موارد المعرفة والتأهيل كالتعليم واللغة والثقافة والتدريب والتدريب والخبرة والتسرب المدرسي، وموارد اقتصادية كالعمل والتقنية ونقص المواد، والأجور المنخفضة والبطالة، واضطراب توزيع الدخل، والاحتكار والموارد الاجتماعية كالولادة المبكرة، والأمومة الحديثة والطلاق والانحراف الأخلاقي ونقص التضامن الاجتماعي، واللاتجائيل وانحسار الحس المدني والتواصل الاجتماعي، واللاعادلة والفقر، وموارد السياسات كنقص الرؤيا الراشدة في الحكامة وإدارة السياسات وتدمير النشاطات الوطنية والفساد المالي والرشوة ... الخ .

والصورة في الوضع الاستبعادي وثقافة الريبة من كل شيء، غدا السجن بالنسبة للمسجون رغم استلاب حريته، بيئة حياتية ملائمة ومتكيفة ورحيمة تضمن له العيش وعدم تحمل مسؤوليته، أفضل من الحياة الاجتماعية خارج السجن، والتي باتت بالنسبة للمسجون مشكلة من حيث قسوتها وصعوبة التكيف مع حياتها المعقدة، حيث تبقى صفته (كمسجون) تلاحقه في كل الأوساط الشعبية أو المؤسسية، حيث يستقبل المسجون المنتهية عقوبته من قبل المؤسسات الدمجية المهنية، بنظرة استخفاف وريبة وشك ورفض مهما أبدى وأظهر توبة نصوحة، فلا يستقبل إلا بصفته (مجرم) فيجري تعسير دمجه وتعقيد حياته عمداً، ومن الطبيعي أن لا يبعث مثل هذا الوضع التعسيري الاستبعادي الرافض إلا الحنين إلى السجن وطلب العودة إليه .

عاشرا : اللامعيارية وانتاج العنف .

ذهب "صفوان" . كما قدمه حجازي . من خلال تحليلاته السيكلوجية المستندة الى اللاكانية، إلى أن "قانون الكلام" من حيث هو المؤسس للكلام والناظم للحياة والضامن للمصداقية المانع للكذب، هو قانون متجاوز للدساتير وقوانين البشر، وهو بما يولده من مشاعر الندم والذنب، يحفظ قانون حصانة الآخر ومنع قتله والحفاظ على الروابط الانسانية، وبدون هذا الناظم الذي يفسح المجال واسعا للكلام والعقل، سيفتح المجال واسعا للصراع واطلاق العنان للعنف المدمر

للعلاقات الاجتماعية⁽⁵⁴⁾. ونشير هنا بهذه المقولة إلى ما يظهر من اللاعقلانية أو اللامؤسسية التي تظهر في الكلام والخطابات اللغوية والممارسات السلوكية في الشارع والأسرة والمؤسسة، نتيجة التغير الاجتماعي المنفلت وغير المراقب، والناج عن إخضاع القيم ذاتها للتغير، بدل أن يخضع التغير لنظام القيم، ففقدت الحياة نظامها المعياري في كثير من مظاهر العيش، واختفت العقلانية، فبذاءة اللسان في الشارع طاغية حتى نكاد نجزم أنها التعبير العفوي أو الحتمي عن ما هو مكبوت كما يقول فرويد، فأصبحت حالة إنوجاد "الإيتوس" في "اللوغوس" كما تصورها "محسن" منعدمة ويغيب فيها المتصل اللغوي من حيث هي اللغة المشتركة (المهيمنة بتعبير بورديو) التي تلتقي فيها كل فئات المجتمع الواحد، كما يغيب فيها ما نسميه . قياسا على ذلك — المتصل القيمي الأخلاقي، أو على الأقل يكونان أفقر مظاهر الحياة العربية، فالحالة اللامعيارية الناتجة عن التغير الاجتماعي السلبي كما هو في الحالة العربية تشبه . إذا جاز لنا التشبيه . بذلك الطفل المشرّد . كما وصفته دراسة محسن - من حيث هو المنفلت من الرقابة المعيارية البائس المتجاوز لطفولته والمرتمي في الدهاليز المظلمة للمدينة.⁽⁵⁵⁾ فالعربي اليوم، الشاب منه على الخصوص، أو حتى المجتمع العربي بمختلف فئاته، ونتيجة اللامعيارية، هو هذا الطفل، إنه الشاب أو المجتمع المشرّد في دهاليز الوضع الثنائي المركب (حادثة/تقليد) حيث . ونتيجة انتشار القمع اللغوي والأسري والسياسي - تصحرت حياته وارتى في اللامعيارية، يعيش في هامش الحياة الانسانية الحداثية كما لو أنه مغموع من الحداثة ذاتها، ويعيش في بعض مظاهر سلوكاته حياة القطيع في التجمع، أو حياة الانغلاق في الهوية العرقية أو الطائفية أو الطبقية، فأخذ بتلك الوضعيات اللاعقلانية يعيش حياة غير حياته الطبيعية الواقعية، وينتج صيغا حياتية غير معيارية وغير عقلانية عنيفة، فكما لا حظ الباحث "محسن" فقرا ما يسمى بـ "المتصل اللغوي" مثلا في الشارع التونسي

(54) مصطفى صفوان . الكلام أو الموت . ت. مصطفى حجازي . ط 1 / (المنظمة العربية للترجمة . مركز

دراسات الوحدة العربية . 2008) ص 8 . 9

(55) محسن بوعزيزي . طفولة مقصية . بحث في العلاقة بين اللوغوس والإيتوس . في مجموعة من الباحثين

(اللغة والتواصل التربوي والثقافي . مقارنة نفسية وتربوية) . ط 1 (المغرب . مطبعة النجاح الجديدة . الدار

البيضاء 2008) ص 121

والتعايش غير المعقلن من قبيل كلمات (تعي ok)⁽⁵⁶⁾ فإننا رصدنا في دراسة أجريتها في الجزائر.⁽⁵⁷⁾ مدى التمرد والعنف الواقع على اللغة المشتركة بصعود اللغة غير المعقلنة المزروعة من كل تجليات (الإيتوس) في اللهجية المستعملة يوميا، وكمثال على ذلك نسوق هذه العبارة كمثال (جيت روطار خاطر ماش البيس دار الروطار) وهي جملة فارغة مما هو مشترك وعقلاني المجتمعي وهي عبارة عن خليط من الدارج الجزائري والعربي الفصحى والفرنسي، لا يستطيع خارج مجال المغرب العربي إن لم نقل خارج الجزائر أن يفهم هذه العبارة، وتعني (جئت متأخرا لأن الحافلة تأخرت) وما يقال عن لاعقلانية التغيير اللغوي يقال عن الوضعية الأخلاقية، إذ لم يبق ما يعد مقدسا، فكل حرمان لله فضلا عن حرمان المجتمع تتعرض للإهناك والعنف في مؤسسة معيارية كالجامعة، وهي المؤسسة التي من المفترض أن تكون قائدة لكل تغيير اجتماعي في نطاق قيمي، إذ يجري فيها سطو لأخلاقي (سلوكات مخلة للحياء) على المجال والساحات والأفكار والقيم .

الخلاصة

إذا كان تصحر الحوار من حيث هو جفاف لغوي له جذوره في اللا شعور الفردي والجمعي وفي الوضع الحضاري والاجتماعي والأسري وله أثره السلبي في تدمير العلاقات الاجتماعية والانعزال والاعترا ب وإنتاج العنف .

وإذا كان تصحر الحوار سمة من سمات الثقافة في الوطن العربي، يصدع به لسانها كما تبينه الدراسات الأمبيريقية، حيث يغشى كل دوائر العلاقات الاجتماعية ويولد الانفصال والتباعد الانعزال والنكوص واليأس من المستقبل لدى الشباب ويؤجج صراع الفئات اللغوية والثقافية والأيدولوجية وينمي فيهم نزعة العنف والتصادم مع الأنا القاهر أو مع الذات،

وإذا كان الإغلاق الحواري قد أصاب مكونات المجتمع، الحدائي الوطني فصار الكل في الدولة الرقابية والانتفاعية نواة داخل قشرتها معزول، فالمجتمع نواة داخل قشرة خاصة (النظام) . المؤسسة نواة داخل قشرة خاصة (القوانين) مضاف

⁽⁵⁶⁾ المرجع نفسه . ص 129

⁽⁵⁷⁾ العربي فرحاتي . السياسة اللغوية في الإصلاحات التربوية بين ضرورات الهوية المجتمعية وتحديات العولمة . مداخلات الملتقى الوطني الثاني حول العلوم الاجتماعية وقضايا المجتمع يومي 18 / 19 أفريل 2011 .

ط 1 (الجزائر . قسم العلوم الاجتماعية . جامعة جيجل . 2011) صص 25 . 26

إليها قشرة المجتمع، والأسرة نواة داخل قشرة خاصة (العادات) مضاف إليها قشرتي المؤسسة والمجتمع، والفرد نواة داخل قشرة خاصة سميكة وصلبة (اللاشعور) مضاف إليها قشرات النظام والمجتمع والمؤسسة والأسرة.

فإنه مع ذلك ليس قدرا محتوما وليست حالة عربية خاصة، مما يجعلنا نتفاعل ونبرح الصورة السوداوية ونفتح الأمل. والأمريحتاج إلى غيث السياسات لتفتيق النواتات المغلقة لتنبث حوارا شكليا كما تنبت الأرض زرعاً. والغيث لا يكون إلا من تنزيل الجماعة العلمية المنظرة للسياسات بما تستطيع عقلنة مكوناته واختراع آليات تنفيذه عبر المجتمع المدني، وليس من تنزيل الجماعات الأيديولوجية التصادمية التي لا تسمح بالحوار إلا وهو منولوجي امتداد لتلونها كالحرباء. وتلك هي الصعوبة التي تواجهنا نحن الجماعة العلمية قبل غيرنا تحتاج منا التنظير العلمي لإغناء لغتنا الحوارية ورسم خارطة الطريق لزرعه في لساننا ووجداننا ومنابرنا وشبكة علاقاتنا ومحيط لقاءاتنا. ومن المؤكد كما يروي التاريخ الإنساني، أن التفتيق من حيث هو الميلاد، إما أن يكون طبيعياً (الحوار) وإما أن يكون قيسري (الثورة) وكلاهما لا يتحققان إلا بالتحاقنا بالمجتمع.

المراجع :

1. أمارتيا صن . الهوية والعنف . وهم المصير الحتمي . ت. سحر توفيق . عالم المعرفة ع352 / 2008 (المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب) الكويت .
2. أحمد أوزي . سيكولوجية العنف . عنف المؤسسة ومأسسة العنف . ط1 (المغرب مطبعة النجاح الدار البيضاء . منشورات عالم التربية . 2014 .) المغرب .
3. إريك فروم . المجتمع السوي . ت. محمد منقذ الهاشي . ط/2009 . وزارة الثقافة الهيئة العامة السورية للكتاب . دمشق .
- 4 — الجوهرة بنت بخيت آل جهجاه . اثر النظرية النقدية الادبية في تنشئة العنف والإرهاب الفكري . ط/2008 . جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية . المملكة العربية السعودية
- 5 . المنجد في الإعلام واللغة . ط/26 . دار الشروق . بيروت . لبنان
- 6 . العربي فرحاتي . أنماط التفاعل وعلاقات التواصل في جماعة القسم الدراسي وطرق قياسها . دراسة ميدانية لدروس اللغة في المدرسة الاساسية الجزائرية . ب.ط (الجزائر . بن عكنون . ديوان المطبوعات الجامعية . ب.ت) الجزائر

- 7 . العربي فرحاتي . السياسة اللغوية في الاصلاحات التربوية بين ضرورات الهوية المجتمعية وتحديات العولمة . مداخلات الملتقى الوطني الثاني حول العلوم الاجتماعية وقضايا المجتمع يومي 18 / 19 أفريل 2011 . ط1 (الجزائر . قسم العلوم الاجتماعية . جامعة جيجل . 2011) . الجزائر
- 8 . العربي سليمان . إشكالية القراءة والتصحح المعرفي . علوم التربية . ع/23/ اكتوبر 2003 . دورية مغربية نصف سنوية . المغرب
- 9 . الغالي أحرشاو . واقع التجربة السيكلوجية في الوطن العربي . ط1/1994 . المركز الثقافي العربي . الدار البيضاء . المغرب .
- 10 . باسمه المنلا . قياس العلاقات الاجتماعية (السوسيومتري) وتطبيقاته في الميدان التربوي وفي جماعات العمل . ط1/1990 . دار العلم للملايين . بيروت . لبنان
- 11 . جاكبسون وآخرون . التواصل نظريات ومقاربات . ت. عز الدين الخطابي وزهور حوتي . ط1/2007 . منشورات عالم التربية . الدار البيضاء الجديدة . المغرب .
- 12 - جون بروكمان . الإنسانيون الجدد . العلم عند الحافة . ت . مصطفى إبراهيم فهي . سلسلة العلوم والتكنولوجيا . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة .
- 13 . جون هيلز . وآخرون . الاستبعاد الاجتماعي . محاولة للفهم . ت . محمد الجوهري . عالم المعرفة ع344 / 2007 . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت .
- 14 - ج.ب هوغ ، دليفيك ، أ . موران . الجماعة السلطة الاتصال . ت. نظير جاهل . ط2/1996 . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر . بيروت .
- 15 - ريكو دوسيل . فلسفة التحرير . مشروع الذات المقهورة . قراءة فريال حسن خليفة . ط1/2007 . مكتبة مدبولي . القاهرة
- 16 - ريمون بودون . فرانسوا بوريكو . المعجم النقدي في علم الاجتماع . ت. وجيه أسعد ج1 . ط/ 2007 . وزارة الثقافة . منشورات الهيئة العامة السورية . دمشق . سوريا .
- 17 - كولن والسن . سيكلوجية العنف أصول الدافع الإجرامي البشري . ت . مالك الأيوبي ط1/2006 . الأهلية للنشر والتوزيع . عمان الأردن .
- 18 - ماتفريد فرانك . حدود التواصل . الاجماع والتنازع بين هبرماس وليوتار . ت. عز العرب لحكيم بناني . ط2002 . افريقيا الشرق . المغرب .
- 19 - مارسيل كراهيه . علم النفس التربوي . ت . رباب العابد . ط1/2007 . مجد . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع . بيروت .

- 20 . محمد باداج . التربية كإقصاء للعنف .مقاربة نظرية . مجلة علوم التربية . دورية مغربية نصف سنوية . ع/25 . 2003 . مطبعة النجاح . الجديدة . الدار البيضاء . المغرب .
- 21 — محمد بوبكري . التربية والحرية . من اجل رؤية فلسفية للفعل البيداغوجي . ط2000 . إفريقيا الشرق .
- 22 — محسن بوعزيزي . طفولة مقصبة . بحث في العلاقة بين اللوغوس والإيتوس . يوجد في مجموعة من الباحثين (اللغة والتواصل التربوي والثقافي . مقارنة نسقية تربوية . ط1) منشورات مجلة عالم التربية (2008) المغرب .
- 23 . مصطفى حجازي . الاتصال الفعال في العلاقات الإنسانية والإدارة . ط2000/3 . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع . بيروت .
- 24 . مصطفى حجازي . التخلف الإجتماعي . مدخل الى سيكولوجية الانسان المقهور . ط8 / 2001 . المركز الثقافي العربي . بيروت
- 25 — مصطفى صفوان . الكلام أو الموت . ت . مصطفى حجازي . ط1 (بيروت المنظمة العربية للترجمة مركز دراسات الوحدة العربية . 2008) لبنان
- 26 . ميلود حبيبي . الاتصال التربوي وتدرّس الادب . دراسة وصفية تصنيفية للنماذج والانفاق . ط1/1993 . المركز العربي الثقافي . بيروت . لبنان .
- 27 — عبد الحميد قرقي . بناء المعرفة السوسولوجية . تنسيق دانيال كلود إيشودميرزون . 2010 . ديوان المطبوعات الجامعية . بن عكنون . الجزائر .
- 28 — عبد اللطيف محمد خليفة . مقياس الاغتراب . ط2005 . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة .
- 29 — علي بن هادية وآخرون . القاموس الجديد الطالب . ط7 / 1991 . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر
- 30 . عبد السلام بن عبد العالي . في الانفصال . ط1/2008 . دار توبقال للنشر . الدار البيضاء . المغرب .